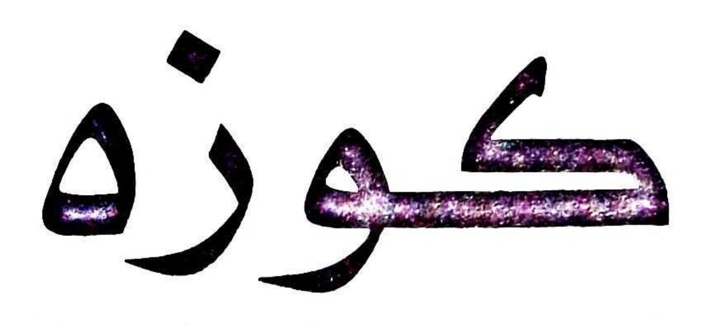
مرزاق بقطاش

كوزه

قصص



مرزاق بقطاش



قصص

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
ـ الجزائر ـ

رقم النشر 82/1271

الرئيس المدير العام يتناول قهوته

(1)

ـ لقد نسيت اسم ذلك الرجل الذي كان معنا هنا في الأسبوع الماضي ..

المشط ينزلق فوق شعره القهوي ، يمط شدقيه أمام المرآة ، ثم يغمض عينا ويفتح أخرى عدة مرات لكي يزيح التقلص عن وجهه ، يده تمتد الى ربطة العنق فتسويها . ويحدق جانبيا في المرآة .

ـ لقد كان الحمام دافئا هذا الصباح ..

صاحب الحمام الى جانبه يصطنع الابتسامة .

ـ إنني أحرص على أن يكون كذلك .

الرئيس المدير يتسلم محفظته الجلدية الرقيقة من يدي صاحب الحمام ، يخرج من سترته ورقة من عشر دنانير ، يتردد صاحب الحمام في قبولها .

ـ أرجوك يا سيدي ..

ـ أنا الذي أرجوك ..

ـ الحمام مفتوح أمامك يا سيدي في كل لحظة .. لن آخذ منك شيئا .

ـ انك تقابلني بنفس الاجابة منذ أنْ صرت زبونك .. أعط هذه الورقة اذن الى «الكياس» .

الرئيس المدير ليس بدينا . خضرةعينيه هي الشيء الذي يلفت النظر في كامل وجهه . الخضرة لم تنزرع في وجهه عفْواً بل صاحبتها الحيلة الشديدة . صوته ينطلق بسرعة ثم يتمدد عند كلمة أوكلمتين في شيء من الغنج ويعاود سرعته .

ـ أنا في القهوة .. ان شئت أن تتناول مشروبا معي ..

ويغيب الرئيس المدير وراء الباب الزجاجي المزركش .

* * *

(2)

الفتى يخلل شعر رأسه أمام المرآة . وجهه مورد . يدلك رقبته بسرعة ويسأل صاحب الحمام :

ـ كم ؟ ..

ـ ستة دنانير ....

مطارح الحمام خالية الآن . ساعة الجدار تشير الى الحادية عشرة . صاحب الحمام يتثاءب :

ـ لقد حان وقت القهوة .

الفتى ينظر اليه وهو يزرر سترته :

ـ إنَّهُ وقت الفطور..

ـ سأشربها مع السيد المدير..

يخرج الفتى وفي إِثْرِهِ صاحب الحمام.

* * *

(3)

الشمس دافئة. أشعتها تَقَعُ مباشرة على فناء المقهى. الزقاق طويل. حدود البلدية تنتهي هنا. عدد من عمال الطريق يخلطون القار بعصى طويلة.

الرئيس المدير جالس الى طاولة. رجله اليمنى موضوعة فوق اليسرى. قضيب حديدي صغير يلتمع في يده. انه يملأ غليونه. كيس من التبغ الهولندي ينطرح فوق الطاولة.

ـ لقد قال لي طبيبي الخاص: ليس هناك أحسن من الحمام لتدفئة الكليتين..

يفتح صاحب الحمام فمه بابتسامة غير موزونة. تتبعها نحنحة متعثرة:

ـ سوف تشفى بحول الله..

الفتى يجلس الى طاولة قريبة ويطلب شايا، يتأمل حركة عمال الطريق ثم يسترق النظر الى الرئيس المدير. في نظراته نوع من المقارنة بين عالم العمال وعالم الرئيس المدير. صاحب الحمام يخاطبه:

ـ لقد عدلت عن رأيك يا فتى..

ـ أنا في حاجة الى شاي لتدفئة أمعائي..

. الرئيس المدير ينفث دخان غليونه . عيناه مغمضتان . صاحب الحمام مستند بمرفقيه الى الطاولة ، ينظر اليه . هناك نوع من التقديس في نظراته . المقهى خال . النادل يضع فنجان القهوة فوق طاولة المدير . يعود بعد قليل ويضع فنجانا آخر أمام صاحب الحمام . الفتى يرشف شايه الآن ، وينقل نظراته بين البخار المتصاعد من القدر الخاصة بتغلية القار وبين السحائب الصغيرة المرتفعة من غليون الرئيس المدير . صاحب الحمام ينتظر أن تنفرج شفتا المدير بالحديث ، يرشف قهوته ببطء . إنهُ يقلد الرئيس المدير العام . الفتى يحدق فيهما معا . يفطن الى التأثير الذي يمارسه المدير على صاحب الحمام وتنفرج شفتاه عن ابتسامة ساخرة :

ـ المكان هادىء لولا هؤلاء العمال .

يقفز صاحب الحمام ويقول :

ـ المكان هادىء فعلا .. انها مسألة أيام قليلة ويبتعد عنا هذا الضجيج ...

* * *

(4)

يخرج «الكياس» من باب الحمام . خطواته بطيئة مهزوزة . يقف في فناء المقهى . الرئيس المدير لا ينتبه لوقفته ولا صاحب الحمام . الفتى يصوب نظرات متسائلة نحوه ، ثم لا تلبث نظراته أن تتحول الى اشفاق . فجأة تنتقل نظراته نحو عمال الطريق ، ثم ترتد لتستقر على وجه «الكياس» . وجه «الكياس» ذابل . أشعة الشمس تقع عليه . هناك ذبول في الاهداب . وصفرة في جوانب الوجه . عظام الصدغين ناتئة . بعض الشيب في مقدمة رأسه . تحت شفتيه وفي

الجانب الأيسر من وجهه بقع بيضاء يليها لون وردي . طوق معطفه مرفوع حتى الاذنين . يداه متراخيتان . يلبس تحت المعطف منامة ، وفي قدميه قبقاب لا يزال مبتلا . وقفته تطول . نظرات الفتى تنتقل الآن بين الكياس والرئيس المدير . يجترع شايه دفعة واحدة . ويستدير بكرسيه ناحية الطاولة المقابلة .

المدير يبدو نائما . الغليون في الجانب الايسر من فمه . صاحب الحمام يحدق دائما في وجه المدير . لا يبدو عليه أنه أبصر حركات الفتى . الكياس دائما في وقفته . حركة العمال في الزقاق تتطامن ، الفتى يفرك كفيه . هناك انقباض في جوانب وجهه .

الكياس يعطس ، ثم تعروه نوبة من سعال . الرئيس المدير يفيق من اغفاءته وينظر ناحيته . علامات الاشمئزاز ترتسم على وجه صاحب الحمام ، يوجه نظرة قاسية الى الكياس ثم يتبعها بابتسامة مصطنعة :

ـ كان عليك أن تبقى نائما .. ان خروجك من الحمام بمثل هذه السرعة يضر بصحتك ..

الرئيس المدير يتدارك الوضع بابتسامة :

ـ اهلا .. تفضل . ان الشمس دافئة ، سوف يذهب عنك هذا الزكام ..

صاحب الحمام يصطنع ابتسامة جديدة . الكياس يأخذ كرسيا ويقربه من الطاولة . يتنهد طويلا :

ـ انه صدرى يا سيدي ...

المدير العام يعدل جلسته وقد ارتسمت علامات الخوف على وجهه . انه يريد ان يبتعد عن أنفاس الكياس . الفتى ينظر نحو الطاولة

مباشرة . لا يريد أن تفوته كلمة من الحوار الدائر . صاحب الحمام ينظر شزرا الى الكياس :

ـ لقد نصحته بأن يتناول رطلا من الزبدة في اليوم على الاقل ..

الكياس يغمض عينيه . لا يريد لِلْغَضَبِ أن يرتسم على ملامحه المدير يتساءل :

ـ ولم الزبدة ؟ ..

ـ يجب أن يتناول كثيرا من الدهون حتى يعوض العرق الذي يفقده في الحجرة الساخنة ..

يملأ المدير غليونه . يضعه في الجانب الايسر من فمه . يشعل عود ثقاب ويقول :

ـ أنا أعتقد أنه من الاجدى أن يتناول الكثير من اللحم .

يستوثق المدير من أن التبغ صار جمرة في الغليون ويضيف :

ـ وعليه بين الوقت والآخر أن يراجع الطبيب ..

الكياس يظل مغمض العينين . تقلصات خفيفة تعرو وجهه . يقوم من مكانه ببطء ويدخل الى الحمام .

* * *

(5)

صاحب الحمام يرفع حاجبيه :

ـ كل نصيحة توجهها الى أمثال هذا الكياس تضيع ..

الرئيس المدير ينفث دخان غليونه . يخرج نظاراته ويمسحهما برفق . يجترع بقية قهوته . صاحب الحمام يتابع حركاته . الفتى يتجشأ ،

ثم يبتلع ريقه كمن يستعد للتقيؤ . المدير يقوم من مكانه بصورة فجائية. يلبس نظاراته .

ـ الوقت لم يحن بعد ..

ـ لدي أعمال كثيرة ...

الرئيس المدير يصافح صاحب الحمام . الفتى يبصق . صاحب الحمام يشد على يد المدير :

ـ كنت أنوي أن أحادثك في قضية ...

المدير يربت على كتفه . يخرج مفاتيح سيارته :

ـ في الاسبوع القادم ...

نفس الابتسامة المصطنعة ترتسم على شفتي صاحب الحمام ، وان كان نوع من القلق يشوب هذه الابتسامة . المدير يفتح باب سيارته ، يشغل محركها وينطلق . صاحب الحمام يتابعه بنظراته حتى يغيب في المنعطف .

* * *

(6)

الفتى يفرك يديه . يقوم من مكانه على عجل ، ويقترب من صاحب الحمام . يحدق فيه من أخمص قدميه الى أعلى رأسه . صاحب الحمام لا ينتبه اليه . وقفته تدل على حيرته . الفتى يقول بصوت مهموس :

ـ و (السناتوريوم) اتعرفه ؟ .

يقفز صاحب الحمام ، ويحدق في الفتى . لم يفهم من كلماته شيئا . نظراته تضيق بينما يفتح الفتى عينيه على سَعَتِهِمَا .

ـ السناتوريوم ! المصحة ! المستشفى !

ـ أنا لا أفهمك ..

الفتى يرفع صوته :

ـ (الكياس) في حاجة الى سرير بالمستشفى . اتفهمني الآن ؟ ..

يتراجع صاحب الحمام قليلا ويصوب نظرات متسائلة نحو الفتى :

ـ وما دخلك أنت ؟ ..

يتمهل الفتى قليلا . حركة العمال في الزقاق توقفت قبل وقت :

ـ أعلم أنه لا سبيل الى الحديث مع أمثالك ....

صاحب الحمام يطلق ضحكة ساخرة :

ـ ولكنني لا اسمح لك بفتح باب الحديث معي ...

يحرك الفتى كلتا يديه بحركة سريعة . ثم يقرع ارضية الفناء بقدمه في عنف :

ـ طبعا .. الكياس لا يهمك أمره .. الزبدة كفيلة بأن تشفيه من داء الصدر .. أو على الأصح اللحوم ..

ـ ابتعد عن هذا المكان .. أنا لا أعرفك ..

ـ أنت تعرف الرئيس المدير العام ... أليس كذلك ؟ .. هو مدير شعبي لا يريد أن يذهب الى سويسرة أو ايفيان للاستشفاء ..

الفتى يبصق باشمئزاز . ثم ينظر ناحية العمال . يلاحظ أنهم توزعوا على أطراف الزقاق وبدأوا يتناولون فطورهم . عيناه تستقران على عامل قارب الستين والى جانبه عامل شاب . زجاجة لبن بينهما وفي يد كل منهما قطعة خبز . يلاحظ أنهما يتناوبان زجاجة اللبن . صاحب الحمام

يقف على عتبة بابه . الفتى ينظر اليه نظرة بين اليأس والغضب ، ثم ينطلق صوته متثاقلا :

ـ عامل الطريق يفطر باللبن والخبز والرئيس المدير العام باللحم المشوي . .

صاحب الحمام يصوب نحو الفتى نظرة حاقدة . لكن الفتى يقابلها بابتسامة ساخرة .

ـ وانت بماذا تفطر ؟ . .

يصفق صاحب الحمام الباب ، وينطلق الفتى في الزقاق وهو يحرك رأسه يمنة ويسره في رفق .

الأثنين 9 ديسمبر 1974

الميناء والحُبُّ والموت

الباخرة الروسية خرجت من الميناء منذ وقت قصير . البحر هائج . بدأت هذه اللحظة تدخل في الضباب .

ـ فلتغرق بهم ...

قاطعته بحدة :

ـ ان لديهم أطفالا ...

أدرك قساوة ما قاله . حاول أن يصحح ما بينه وبين نفسه . وجهها التصق بزجاج النافذة . حالت بينه وبين رؤيةِ الباخرة .

ـ إنك تحجبين عني منظر الميناء ...

ـ لسانك قاطع ...

ابتسم وقال :

ـ لقد أصدرت حكمي دون أن أعي ما أقول ...

ـ اذن ، تتراجع عَمَّا قلت ! ..

ـ طبعا ...

ود أن يحتضنها آنئذٍ . سقطت رغبته فجأة ، فوقف على أطراف أصابعه ينظر الى الميناء والى الباخرة . خفق قلبه عندما رأى الضباب

يلف الباخرة بأكملها . لم تعد سوى كتلة ذات سواد باهت . أحس أن شيئا ما يذهب في تلك اللحظة دون رجعة . فجأة تذكر المريض الذي تركه في البيت . وتذكر أن عليه أن يشتري له بعض الحوت «ولكن أين سأجد له الحوت ؟ البحر هائج ، والصيادون لم يخرجوا للصيد ؟ لعلي أجد بعض الحوت قرب أميرالية البحر» . ظلت ظاغطة وجهها على زجاج النافذة . شعرها كان منسدلا على ظهرها . تساءل كيف يكون وجهها هذه اللحظة «قد تكون غاضبة فهي حساسة جدا» .

ـ البحر جميل ... أحب هذه المناظر الرمادية .

ـ أنت متشائمة ...

ـ بل هذه هي المناظر الجميلة التي تطرب لها النفس ...

الميناء مصهور اللون . مياه البحر تبدو ثقيلة داخل الميناء ، أما في الخارج فهي تتحرك بعنف ولكنها تبدو متثاقلة أيضا . البواخر لم تخرج ، وحتى ساحبات البواخر لم تغادر أمكنتها .

ـ الباخرة الروسية أبحرت في الضباب ...

ـ أنت الذي أبحرت في الضباب ...

ـ ماذا تعنين ؟

ساد الصمت بينهما . مسح الزجاج وحدق في جانب وجهها الايمن ، عينها اليمنى كانت تطرف . «لعل حرارة الانفاس أحرقتها» .

ـ هل تبكين ؟

ـ كلا ...

أدرك من جوابها أنها تريد البكاء . عاد يسألها :

ـ بل إنك تبكين ! ..

التفتت إليه بعينين محمرتين ثم أشاحت بوجهها :

ـ نعم .. إنني أبكي .. لقد أبكتني الباخرة الروسية ...

ـ أنت رومانتيكية ...

ـ أنا واقعية ...

ـ بل أنت رومانتيكية وتحبين الأشياء الرمادية ...

أرسلت تنهيدة وقالت :

ـ إنني أفكر في نساء البحارة الذين يعملون على متن الباخرة الروسية ...

أرسل ضحكة ووضع يده اليسرى على كتفها :

ـ إنك تمزحين ..

ـ بل أنا جادة ..

أدار عينيه في محجريهما وقال :

ـ أنا لا أفهمك .

ـ يجب أن تفهمني ..

عاودته في تلك اللحظة ذكرى المريض الذي تركه منطرحا في الفراش . تذكر الحوت الذي يجب عليه أن يشتريه فخفق قلبه من جديد . قال لنفسه : « المريض والحوت لا يجتمعان ، قد أجد الحوت ولكنه لن يقوى على أكله » .

ـ اتحسنين طبخ الحوت ؟

أرسلت تنهيدة متثاقلة وهي تنظر اليه :

ـ انك تهذي .. ما شأن الحوت بهذه اللحظة ؟

ابتسم ، ومسح زجاج النافذة بباطن يده اليمنى :

ـ هذه اللحظة تجمع بين الحوت والمرض والباخرة الروسية ودموعك ..

واصلت التحديق في وجهه فيم راح يحاول اقتناص الباخرة الروسية وسط الضباب . نفس الاحساس الذي اعتراه قبل قليل عاد ليسيطر عليه . «شيء ما يذهب في هذه اللحظة دون رجعة» . ضرب بجمع يده اليمنى على جبهته :

ـ ولكنني لن أجد الحوت ...

فغرت فاها ، وجعلت تجيل عينيها في قسمات وجهه :

ـ مَاذَا بكَ ؟

ـ لن أجد الحوت في مثل هذا اليوم الرمادي ! الصيادون لم يخرجوا للصيد ولن يخرجوا ...

ـ أنا لا أفهمك ...

ـ يجب أن تفهميني ...

شدت يده اليسرى وهزتها قليلا دون أن تحيد ببصرها عنه . أطرق هو إلى الأرض . ذكرى المريض المنطرح في الفراش تَغَلَّبَتْ عليه . لم يستطع أن يزيحه عن مخيلته .

ـ ماذا بك ؟

رفع يده اليمنى ، ووضعها على خدها ، الحزن احتل وجهه . عيناه راحتا تضيقان شيئا فشيئا .

ـ ماذا بك ؟

سحب نفسا طويلا فطرفت عيناه .

ـ الباخرة الروسية .. اتذكرينها ؟

ـ إنها في الضباب ،، إنها غيربعيدة عن الميناء ...

انفتح فمها ، وانكمش الجانب العلوي من خديها :

ـ ماذا بك ؟

أغمض عينيه ، فرأى خطوطا سوداء عديدة مائلة :

ـ الباخرة الروسية يا مريم ..

ـ ما بها ؟

أرسل صوتا ثقيلا من أنفه دون أن يفتح عينيه :

ـ أحس بأن شيئا ما يلفه الضباب ويذهب الى غير رجعة ..

بدأت تبكي . تركت يده اليسرى تسقط الى جانبه . لم تعد تقوى على فهم ما يقولُهُ .

عندما سمع بكاءها أحس بأن الدنيا صارت صفحة باهتة يحدث وراءها شيء ، ولكن دون أن يدري ما هو ذلك الشيء .

ـ إنني لن أجد الحوت ...

رفعت كلتا يديها الى أذنيها :

ـ سوف أجن ...

فتح عينيه فجأة كأنما أفاق من حلم طويل :

ـ هل أزعجتك يا مريم ؟

مسحت دموعها ونظرت إليه :

ـ إنني لا أفهمك ...

فرك أرنبة أنفه بين أصبعي يده اليمنى ، أراد أن يبتسم فلم يستطع ..

ـ سامحيني يا مريم .. لقد أزعجتك .

قربت وجهها من وجهه حتى تستطيع التحديق في عينيه . لاحظ أن الكحل في أهدابها قد اختلط بالدموع ...

ـ أنت جميلة ..

ـ أنا لا أفهمك ..

هز رأسه بتثاقل :

ـ لقد تركت انسانا عزيزا علي منطرحا في الفراش ... عندما رأيت الباخرة تغيب وسط الضباب خيل الي أنه يذهب الى غير رجعة ..

تنهدت طويلا :

ـ الحمد لله ...

وضع يده اليسرى على شعرها بينما كان رأسها مستلقيا على صدره . حدق في الميناء فرأى أنَّ الماء لا يزال مصهورا ثقيلا وعض شفته السفلى .

27 سبتمبر 1974

حركة في الدائرة الثانية

حركة في الدائرة الثانية

بَابُ قصر العدالة كبير. ترتسم عليه عدة نقوش.. أشعة الشمس تستلقي عليه ببطء . على عتبته الرخامية ينام شخص . قدماه حافيتان .. يده اليمنى منطرحة على عينيه. لحية خفيفة تنزل إلى رقبته. المارة يعبرون ، يلقون نظرات فاحصة على الشخص وعلى الباب الكبير . في نظراتهم تساؤلات عديدة . البعض منهم يكتفي بالابتسام .

الشخص مستغرق في النوم . المكان مشمس ، والعدالة لا تعمل عصر يوم السبت . أشّعة الشمس عندما تنطرح على صفحة القدمين تكشف عن شقوق عديدة سوداء . انفاسه تتوالى بطيئة .

السيارات تعبر الشارع . في مواجهة قصر العدالة تقوم كنيسة قديمة أغلقت أبوابها قبل زمن . بعض الحشائش الطفيلية نبتت على عرصاتها الأمامية . الى يمين الكنيسة حانة صغيرة تقوم في أسفل العمارة . يخرج منها شخص يترنح . لحية كثة تغطي كامل وجهه . قميصه مفتوح على صدره . حركاته بهلونية . ينطلق صوته بالغناء ثم يتوقف ، فتاتان في الشقة الموجودة فوق الحانة مباشرة ترسلان ضحكات رنانة .

يتوقف الشخص وسط الساحة الصّغيرة المجاورة للكنيسة . يتناول من خصره بوقا مَعْقُوفاً وينفخ فيه . عدد من السكارى يطلون من باب الحانة وهم يضحكون . الشخص يدور حول نفسه ثم ينفخ في البوق . الناس الذين يمرون بالقرب يترددون أمام المشهد .

صفير البوق يزداد قوة . النائم عند باب قصر العدالة يرفع يده المنطرحة على وجهه قليلا . ينظر ناحية الحانة . يتمتم بعض السباب ويعود الى اغفاءته . جلبة المارة لا تؤثر فيه . يبدو أنها تهدهده . البوق وحده هو الذي أيقظه .

صاحب البوق يرقص دون أن يكف عن النفخ . السكارى يخرجون من الحانة ، يتحلقون حوله ويصفقون . البوق لا يصدر إلا صوتا واحدا . بعض المارة يتوقفون . يتساءلون فيما بينهم . الفتاتان تضربان بأيديهما على حافة النافذة في رتابة . السرور باد عليهما . واحد من المارة يلقي بقطعة نقدية من عشرين سنتيما عند أقدام النافخ في البوق . يضع آخرون أيديهم في جيوبهم . وتتوالى القطع النقدية بين أقدام صاحب البوق . انه ينفخ ، ويضرب الأرض بقدمه اليمنى . التصفيق رتيب . السكارى يرسلون أصواتا مبهمة . واحد منهم يتقدم من النافخ في البوق ، يدخل الحلبة ويرقص دائرا حوله . عدد المارة المتجمعين يزداد .. بعض النسوة يتوقفن .

النائم عند باب قصر العدالة يفتح عينيه ، ويفركهما . جبهته ملطخه بشيء أسود . الغضب يبدو على عينيه الضيقتين . انه يشتم ويشتم . المارة يحسبونه مجنونا . نظرات البعض منهم عطوفة . أشعة الشمس تبهر عينيه . يريد أن يحدق ناحية الحانة ، لكنه يعجز . النعاس وأشعة الشمس يرغمانه على اغماض عينيه .

صاحب البوق يتوقف عن النفخ . المارة يتفرقون . يغرز البوق في حزامه ، ويبدأ في التقاط القطع النقدية . السكارى الذين معه يساعدونه .. البعض منهم يربت على ظهره ، ويقول له كلمات مشجعة . بعد قليل ، يأخذ القطع النقدية ، يحسبها . يدور حول نفسه مسرورا . يمسح لحيته الكثة على طريقة رجال الدين . يرفع رأسه نحو صليب الكنيسة ويرسل ضحكة طويلة . ثم يشير بيده نحو الصليب محييا ، ويطأطيء رأسه في إجلال وتقدير . هنيهة تنقضي ، وينادي أصحابه فيتحلقون حوله ، ثم يشير بيده نحو الحانة ، فَيَنْسَرِبُونَ بسرعة داخلها ، ويتبعهم .

النائم عند باب قصر العدالة يعود الى اغفاءته . لم يعد يغطي عينيه الآن بيده . أشعة الشمس تقع على كامل وجهه . لحيته الخفيفة تبدو قذرة . شفتاه تتحركان بين الفينة والاخرى . لسانه يندفع تلقائيا فيمسح عنهما اليباس . ينقضي عليه بعض الوقت وهو على اغفاءته ، ثم يتنحنح بقوة ، ويبتلع ريقه . إنه العطش . يفتح عينيه . وينظر إلى العابرين واحدا واحدا . ثم يصلب رجليه ، فتبدو قدمه اليمنى سوداء كالقار ، وعليها بعض الشقوق في الكعب وبين الاصابع . يرتفع صوته بالغناء ، وهو ينظر نحو الحانة . أشعة الشمس انحسرت عن وجهه . لم تعد تؤلم عينيه . بعد قليل تختفي وراء العمارة الجانبية . يتأفف من صوته ، ثم يحرك شدقيه باشمئزاز ويبصق جانبا . يشخص ببصره نحو سقف الرواق الذي يوجد تحته مدخل قصر العدالة ثم يعاود إغماض عينيه .

بعض الحركة عند عتبه الحانة . يطل صاحب البوق . عدد من الايادي تشده من كتفه . يتنصل منها ويندفع من الحانة . يده اليمنى ترتفع بسرعة لتمسح الفم واللحية . انه يتقدم بخطوات ثقيلة في اتجاه

باب قصر العدالة . يعبر الساحة الصغيرة ثم يتوقف وينظر يمنة ويسرة ويرفع يده مشيرا الى السيارات بالتوقف حتى يستطيع العبور . بعض السيارات تتردد ، يضع يده على حزامه لكي يأخذ البوق ، لكنه يحجم . يجتاز الطريق بحركة بهلوانية . يده ترتفع بالتحية لأصحاب السيارات ، رأسه ينخفض قليلا ثم يرفعه من جديد . ويشمخ بأنفه وهو ينظر إلى قصر العدالة أمامه .

يقترب من النائم ، ويخرج البوق من حزامه . المارة يتوقفون دون أن تصدر عنهم أية حركة . ينحنى ، ويقرب البوق من اذن النائم ، ثم ينفخ بقوة.يقفز النائم،وينهال بيده على وجه صاحب البوق بكل قوة فيقع أرضا . الشتائم تخرج من فمه مسرعة بدون ضابط . المارة يتأملون المشهد في صمت غريب .

صاحب البوق يحك خده ، ثم يخلل شعر لحيته . ينظر بعينين سوداوين نحو صاحبه . يريد أن يقول كلمة عتاب ، فتحتبس الكلمات في حلقه . ينظر إلى البوق المنطرح إلى جانبه ، يلتقطه وهو يحدق في صاحبه . ثم يصفر ثلاث مرات متوالية . يبتسم صاحبه ، ويحرك شدقيه بصورة بهلوانية ويقول بصوت مرتفع :

ـ أنا قادم .. أنا قادم ..

المارة ينفجرون بضحكاتهم . النائم عند باب قصر العدالة يقوم ، يفرك عينيه . ثم يساعد صاحب البوق على القيام من مكانه . يتعانقان ، ثم يجتازان الشارع نحو الحانة المقابلة وسط لغط المارة ، وأبواق السيارات .

26 نوفمبر 1974

جياد في حلبة ضيقة

جياد في حلبة ضيقة

جاء من بلد عربي . حركاته لا تفصح عن البلد الذي انتدبَهُ إنها ثقيلة ، يعوقها شيء ما . الشوكة في يده تنزل إلى الصحن ببطء ، والسكين لا يكاد يقوى على اقتطاع اللحم .

قاعة المطعم فسيحة ، تطل على البحر . أعضاء الوفود يتوزعون على الطاولات ، يتبادلون الضحكات . أحد الندل ينتقل فيما بينهم ، وهو يحادثهم بلغات عديدة . الحرارة خانقة مع أن المطعم يطل على البحر . قام أحد الاعضاء وأسدل ستارتين .

الطاولة التي يجلس إليها تقع في قلب قاعة المطعم . حركاته تزداد ثقلا بسبب هذا الموقع الاستراتيجي .. يجلس قبالته شخص يقيم بالفندق منذ أيام . يقولون عنه إنه لاجيء سياسي تعذب كثيرا في بلاده . شعر رأسه منفوش . عيناه بين اللون الرمادي واللون الأزرق . لا يجرؤ على رفعهما . كان جالسا قبالة البحر . عندما أسدلت الستائر لم يرفع عينيه ، مع أن ضوء الشمس لم يعد يبهرهما . حركات يديه ثقيلة هي الأخرى .

الشخص الأول ذو جبهة عريضة . عيناه صغيرتان ، وأنفه افطس قليلا . يريد أن يبتسم لزميله فلا تعرف الابتسامة طريقا إلى شفتيه .

اللقمات ترتفع متمهلة إلى فمه ، عينه اليمنى تسترق نظرات جانبية إلى طاولة غير بعيدة عنه ، ثم ترتد إلى الصحن .

نادل عجوز يقترب من الطاولة ، ويضع عليها زجاجة من ماء معدني . عيناه زرقاوان . عرق خفيف على جبهته . صوته ينطلق متكسرا .

ـ الأرز طبخة لذيذة ...

الشخص الأول يرفع رأسه بسرعة ويبتسم . ينصرف النادل فيعاود استراق النظر إلى الطاولة القريبة ، ويكاد يغص باللقمة . الشخص الثاني يلاحظ حركات زميله . يبتلع بعض الأرز ويقول :

ـ جسمي في حاجة الى عنصر الحديد .. الطبيب قال لي ذلك .. ولكن هذا العنصر غير متوفر في هذه الطبخة .

الشخص الأول يبتسم . الشوكة تتوقف في الصحن :

ـ هل أنت مريض ؟ ..

عينان رماديتان تحدقان فيه :

ـ أنا في طور النقاهة .

يكفان عن الحديث . حركاتهما تتكهرب دفعة واحدة . اللقمات تتوالى . يقتطعان اللحم بعنف . النادل العجوز يمر بالقرب من طاولتهما ولا يتوقف . عينا الشخص الأول لا تسترقان النظر الآن إلى الطاولة القريبة . عالمه صحن من الأرز وقطعة من اللحم وَحُقٌ ملح وفلفل ، وزجاجة ماء معدني ، ثم وجه بدأت لحية خفيفة تنبت عليه .

ـ أنت لست مثل الآخرين .

يتوقف الشخص الأول . يحدق في زميله قبالته . دماء خفيفة تسري في وجهه . لا يستطيع أن يجيب أو هو يمتنع عن الاجابة .

ـ لقد حدست ذلك ..

يطرق الشخص الأول هنيهة ، يملأ كوبه من الزجاجة ولا يشرب . يَدَا زميله فوق الصحن مباشرة ، الشوكة من جهة والسكين من جهة ثانية . عيناهما تتلاقيان . عينا الشخص الثاني ملتمعتان ، تنتظران حركة الشفتين المقابلتين .

الشخص الثاني يطرح الشوكة والسكين . رغبته في الأكل تتوقف فجأة . يمسح شفتيه . يتناول زجاجة الماء ليملأ كوبه ثم يتوقف ، حركاته لم تعد متمهلة. إنها مزيج من السرعة والتوقف المفاجئ. عيناه تمسحان قاعة المطعم ثم تعودان إلى الطاولة التي يجلسان إليها . ولكنهما حين تعودان تزدادان بريقا . الشخص الأول يحدق في زميله بعد أن مسح شفتيه . بعض التردد يرتسم على شفتيه . يتناول عود ثقاب ويضعه بين أسنانه . عينا زميله تطرفان الآن بسرعة ، ثم تعودان إلى اتساعهما كمن يفيق من غيبوبة .

ـ الكلاب ! .. الرجعيون ! ..

الشخص الأول يستقيم في مكانه . ينظر الى زميله مُعَاتِباً :

ـ أرجوك .. لا تصرخ ..

عينا الشخص الثاني تستقران على الباب الذي يفضى إلى قاعة المؤتمر . بريق شديد يشع منهما . مندوب على رأسه عقال يدخل من الباب .

ـ الرجعيون ! ..

الشخص الأول يقضِم العود بقوة . يتناول الزجاجة ويملأ كُوب زميله :

ـ اشرب .. هدىء نفسك .

صاحب العقال يتوجه نحو طاولة ويجلس . الشخص الثاني يتناول الكوب ويأخذ منه جرعات متوالية . يمسح شفتيه .

ـ عندما أراهم .. أشعر أن كل شيء يصير أسود اللون .

يناوله الشخص الأول سيجارة وهو يقول :

ـ أنت في طور النقاهة .. لا تتعب نفسك ..

ـ طور النقاهة لا يمكن أن يستمر ، يجب أن ينتهي ..

الشخص الأول يسترق النظر إلى الطاولة القريبة ثم يغمض عينيه ، هناك بعض العرق بين حاجبيه . يزم شفتيه نحو الداخل ثم يقول :

ـ أنت على الأقل لاجيء سياسي .

ـ من قال لك ذلك ؟ ..

يفتح الشخص الأول عينيه ، يحدق في زميله ببراءة :

ـ إنهم يقولون عنك إنَّكَ لاجئ سياسي. الفندق كله يعلم ذلك.

يهز الشخص الثاني رأسه راضيا . يمسح جبهته بحركة خفيفة :

ـ هذه الصفة تشرفني رغم كل شيء .

ـ أنت محظوظ .. إنك تتمتع بهذه الصفة على الأقل ..

الشخص الثاني يضرب الطاولة بجمع يده مقاطعا :

ـ وأنتَ من شعب يناضل ..

لغط الوفود يزداد في قاعة المطعم . بعض الأصوات تشير الى ما جرى في قاعة المؤتمر. أصوات أخرى تتحدث عن السياحة والامكانيات

الموجودة لدى العرب . النادل العجوز يدور بقامته القصيرة بين الطاولات ، وهو يرفع بعض الأطباق الفارغة ..

الشخص الأول يتجه بأنظاره نحو مدخل قاعة المؤتمر لأول مرة . يتجاوز الطاولة القريبة منه . هناك جلبة عند المدخل .

شخص قصير القامة ، عصبي الحركات يخاطب شخصا آخر . الانظار كلها تستقر على المشهد . الشخص الثاني يميل نحو صاحبه ، يلفت انتباهه بحركة من يده .

ـ إنه وفد فلسطين أليس كذلك ؟

ـ بلى ..

الشخص الثاني يسند مرفقيه إلى الطاولة ، يحدق في زميله الذي أطرق برأسه نحو الصحن أمامه :

ـ إنك لا تنتمي إلى هذا الوفد ..

ـ لا .. أنا انتمي إلى وفد آخر ..

ـ إلى أي وفد ؟ ..

الجواب لا يأتيه . يعيد طرح السؤال لكنه يظل معلقا . غشاوة من الدموع في عيني زميله ، وعرق خفيف فوق جبهته . الحركة متوقفة بينهما . هناك رأس مطرق ، ورأس آخر يقابله . القادمان الجديدان اللذان دخلا قبل وقت يجلسان إلى طاولة محاذية يتبادلان الضحكات .

ـ كيف أنت يا أبو حمام ؟

الشخص الاول يرفع رأسه بحركة سريعة . الدموع تطفر إلى عينيه .

بحركة رشيقة يضع حبات من التفاح في صحنين صغيرين :

ـ التفاح منعش .

وينسرب النادل العجوز بين الطاولات فيتابعه الشخص الأول بنظرات مرتابة . بعد قليل يدخل قاعة المطعم شخص أنيق وبيده قصاصة ورق ، ويرفع صوته :

ـ يا جماعة .. سنقوم بعد قليل بجولة بحرية .. فالرجاء منكم أن تتناولوا غداءكم بسرعة ..

يتوقف الشخص الأنيق هنيهة وعلى شفتيه ابتسامة ، ثم يضيف :

ـ أتمنى الا تصابوا بعسر في الهضم ..

ترتفع اثره بعض الضحكات في قاعة المطعم . الشخص الثاني يتناول تفاحة ويقشرها . حركات يديه صارت متباطئة . عيناه تلتمعان بشدة وهما تستقران على الطاولة المجاورة . زميله يحاول أن يتدارك الموقف فيقول :

ـ كل .. لا تنظر إلى طاولته .

الشخص الثاني يمرر لسانه على شفته السفلى . يطرح السكين عرضا فوق الطاولة ، فتصطدم بالصحن وتحدث رنينا حادا . عيناه تتسمران في العقال الذي يرتديه صاحب الطاولة المجاورة . إنهما تنزلان الآن نحو الصدغ . الصدغ يتحرك ببطء . تواصلان النزول ، ثم تستقران على يد منطرحة فوق الطاولة . أصابع اليد تعبث بحبات مسبحة في حركة آلية . صوت الشخص الثاني ينطلق خافتا يخاطب نفسه :

ـ يا للتناقض ! .. هذه هي العبقرية حقا ! ..

الشخص الأول يتابع كلمات زميله بعد أن توقف عن اقتطاع جزء من التفاحة :

ـ لا تنظر إليه ..

الشخص الثاني لا يسمعه . يزيح أنظاره عن الطاولة المجاورة بحركة تلقائية . يتناول التفاحة من صحنه ، يدنيها ببطء من فمه وهو ينظر أمامه في ذهول ، يقضمها ، ثم يبعدها قليلا ليتأمل آثار أسنانه عليها . يطرحها على الطاولة باشمئزاز ويقوم من مكانه بسرعة ، فيتبعه الشخص الأول .

الأحد 24 نوفمبر 1974



كـوزة

كوزه

1) المخطاف :

– إنه ينتظرنا ولا شك ...

الظلمة شديدة . البحر هنا صفحة سوداء.إلى اليسار صخرة هائلة تنطلق من الشاطيء وتمد لسانها نحو البحر . فوقها يقوم بيت غارق في الظلام . الشاطيء كله حاشية عريضة قاتمة السواد . فوق الحاشية مباشرة تنتشر أضواء الأعمدة الكهربائية على طول الشارع الرئيسي المطل على البحر.

– إنه ينتظرنا ولا شك ...

وقع المجذافين رتيب ، أنفاس « كوزه» متقطعة . إنه عبارة عن شبح يتحرك نحو الأمام ، ثم يتراجع بانتظام .

– هل أنت خائف ؟

يحرك «كوزه» رأسه ناحية المجذاف الايسر ويبصق :

– أبعد عني هذه القفة قليلا . . . رائحتها تخنقني . . .

حركة القارب فوق الماء رتيبة ، مقدمته لا ترتطم بصفحة البحر على الرغم من الجهد الذي يبذله «كوزة» . أخوه يقول عنه دائما بأنه فنان في دفع القارب .

ـ لم تجبني ، ، هل أنت خائف ؟

ـ لست أدري ...

«كوزه» يتوقف عن التجذيف فجأة . يميل نحو أخيه بأنفاس متقطعة . يده ترتفع قليلا :

ـ اسمع . . . لقد قطعنا عهدا فلا تتراجع . . .

همسة تند عن أخيه ،ركبتاه تحتكان فيما بينهما :

ـ هيا . . واصل التجذيف . . .

ـ كلا . .

ـ إنني لن أخون العهد ...

حركة المجذافين تعود إلى رتابتها . بعض الأنوار تنعكس الآن على صفحة البحر.

ـ لابد أننا في منتصف الليل ...

ـ الزمن لا يهم ، ،

«كوزه» يقوم من مكانه ، يجذف وهو واقف حتى يتفادى الصخور العديدة التي تنغرس تحت صفحة الماء مباشرة ، القارب يتحرك يمينا فيسارا ، ثم يتقدم في خط مستقيم ، الظلمة شديدة الآن ، الماء يمتد ويتراجع برتابة ، مقدمة القارب تحتك فجأة برمل الشاطيء ، فيعاود «كوزه» الجلوس على العارضة الخشبية .

ـ لقد وصلنا . .

أخوه في مكانه ، قبالته . يداه مشدودتان إلى بعضهما بين ركبتيه .

ـ إنك لا تزال خائفا ...

ـ كلا . .

يقترب منه « كوزة» وهو يقفل ازرار قميصه ، يتطلع إلى ملامح وجهه ، لكن الظلمة الشديدة تحاول دون ما يريد .

ـ اسمع . . الملاحون لا يخشون شيئا . .

لم يصدر أي جواب عن أخيه ..

ـ ما الذي يقلقك ؟ ... لقد أتينا بخبزنا اليومي .. فما دخله هـو؟ ...

يتنحنح أخوه ، يريد أن يقول شيئا فلا يستطيع ، يحاول القيام من مكانه فيمنعه «كوزه» ، القارب يهتز بحركة منتظمة .

ـ لا لا تخش شيئا ، إنه لن يتدخل في أمورنا ..

ـ أنا خائف .. ولكنني لن أخون العهد ..

« كوزه » يصفق فرحا . صوته ينطلق منغما وسط الظلمة دون أن يعبر عن شيء آخر سوى سروره الغامر ، حركات يديه تصير سريعة ، ترتفع وتنخفض في العتمة :

ـ اسمع .. سوف نشتري قفة جديدة ، أدوات الصيد كلها سنغيرها . .

ـ لنسحب القارب الآن . . .

يقفز «كوزه» إلى الرمل فيغمر الماء قدميه ، يشد مقدمة القارب بكلتا يديه ، ينتظر مد البحر حتى يقوى على السحب ، رجلاه تنغرزان في الرمل .

ـ اسمع . . سوف نجمع المال شيئافشيئا ونشتري هذا القارب من «عبد الغني» . . .

ـ دعك من الحديث . . اسحب . .

أخوه يقفز إلى جانبه ، ينتزع المجذافين من مكانهما ويبسطهما على القارب . أنفاسهما تتشابك ، القارب ينزلق على الرمل شيئا فشيئا .

ـ سنضعه هذه المرة تحت البيت البحري .

ـ كما تشاء . .

العتمة شديدة بين أعمدة البيت البحري. الرمل هنا يفسح المجال للحصى المدور . القارب ينزلق فوق الحصى بسهولة . لا أحد يسكن البيت . السكارى يلجأون إليه كل صيف منذ أن غادره صاحبه الفرنسي قبل اثني عشر عاما ويهجرونه في بداية الخريف . نوافذه محطمة ، وبعض أخشابه اهترأت .

يتناول «كوزه» قفة الصيد ويسلمها لأخيه ، يشد المخطاف ، ويلوي حوله الحبل المشدود إليه . يهز يده ليتحسس ثقله .

ـ ضع المجذافين على كتفي الآن . . .

ـ لا . . سنتركهما هنا . . .

ـ لماذا ؟ ، ،

ـ ليس من شك في أنه ينتظرنا الآن ...

ـ عدت إلى كلامك يا « كوزه» ...

«كوزه» يحرك المخطاف ناحية أخيه ، ثم يديره بحركة سريعة :

ـ المخطاف هنا ،، الأفضل له ألا يمسنا .

اخوه لم يقل شيئا ، خطواتهما متثاقلة فوق الرمل . الفجوة التي تفضي أمامهما إلى السلم كتلة من العتمة ملتصقة بالسور العالي الذي يقوم فاصلا بين البحر والحي السكني ، أخوه يقول له :

ـ أتعني أنك ستضربه بهذا المخطاف ؟

ـ نعم ، ، سأضربه . . .

الفجوة المعتمة تبتلعهما ، رائحة البول والفضلات شديدة ، يبصق «كوزه» بصوت مشمئز :

ـ هيا . . اسرع قبل أن نموت اختناقا . . .

خطواتهما تنطلق في الدرج مسرعة . يمسك كل منهما بأنفاسه حتى يمكن لهما تفادي الرائحة الكريهة . إنها عادة صارت ملازمة لهما . بعد ثوان قليلة يخرجان من فتحة الدرج المعتم . أنفاسهما تتلاحق بسرعة . «كوزه» يستند إلى حاجز السور المطل على البحر دون أن تتخلى يده عن المخطاف ، أخوه يضع القفة بين رجليه ، ويجدد الهواء في رئتيه بسرعة .

الحي ساكن . أنوار الأعمدة الكهربائية المنصوبة على طول الشارع الرئيسي تزيد السكون هيبة .

ـ إنني أكره هذه الأضواء ... منذ أن استبدلوها بالأضواء الشاحبة والحي يبدو حزينا . . .

«كوزه» ينتصب ، والمخطاف في يده يستعد ليقطع الشارع نحو زقاق يفضي إلى الدار . أخوه يقف إلى جانبه والقفة في يده . أنوار العمود الكهربائي المقابل تقع عليهما . عينا «كوزه» كبيرتان مستديرتان . شعر رأسه ينطرح على جانب من جبهته . رجلاه حافيتان ، وقد ثنى سرواله حتى ركبتيه . أخوه أطول منه قامة بكثير . أحول ، ذقنه مدببة . نظرة جانبية تحين من «كوزه» نحو أخيه :

ـ إنك تزداد طولا كل يوم .. لن يقول الناس بعد اليوم بأننا توأمـان ...

أخوه يحدق في الزقاق حيث تقف بعض السيارات ، نظراته تترصد جوانب السيارات .

ـ ماذا تفعل ؟

ـ لعله ينتظرنا وراء السيارات . . .

ـ إنه لن ينتظر في مكان آخر سوى الدار ، ،

يجتازان الشارع نحو الزقاق على مهل .« كوزة » يشد المخطاف بقوة . في حين يحتك به أخوه ويقول له :

ـ اسمع .. إذا لم ننجح في الدخول إلى الدار .. فالأفضل ألا نعود من هنا .. هذا البيت إلى جانبك الأيسر ، سكنه أحد رجال الشرطة أخيرا ...

ـ سنختار الطريق الذي نريدها نحن . . .

على جانبي الطريق تقوم مساكن عديدة بعضها منخفض ، والبعض الآخر لا يتجاوز ثلاثة طوابق . الظلام ليس شديدا في الزقاق . هناك ثلاثة أو أربعة مصابيح ملتصقة بجدران بعض البنايات .

ـ غدا ، سنأخذ «حميد» معنا ، ، ،

أخوه يهمس له :

ـ لا تخلق لنا مشاكل مع أبيه ، ،

ـ المشاكل هم الذين يخلقونها ولسنا نحن ، ، .

ـ إياك أن تتدخل في شؤون الآخرين ، ، قد يخبرون الشرطة فتأخذنا إلى السجن ، ، ،

يهمهم «كوزه» ويتوقف ليقول شيئا :

ـ إنك تخاف كل الناس ...

ـ لا أريد أن تكون لي معهم مشاكل ، ،

ـ الأفضل لك إذن أن تعود إلى المدرسة فأنت جبان ...

أخوه يتوقف فجأة . يطرح قفة الصيد ويضع كلتا يديه على أطراف خاصرته. بريق خاطف يعبر عينيه . شفتاه المزمومتان تنفتحان دفعة واحدة :

ـ أنت أيها القميء سأكسر عظامك ذات يوم ...

«كوزه» يقف قبالته ، والمخطاف في يده اليمنى . نظراته نحو أخيه جانبية دون أن يبدو عليه الغضب . إنه يعلم أن مثل هذه الكلمات التي تصدر عن أخيه لن يتبعها أي فعل . يعض شفته السفلى لحظة ثم يقول :

ـ وأنت أيها اللقلاق الأحول سيكون لي معك شأن . . .

يضرب أخوه الأرض بقدمه اليمنى ، ويكور قبضته ، ثم يقربها من وجه «كوزه» :

ـ لا تنعتني بالجبن ... قلت لك ذلك مرارا .. أنت تعلم بأنني لا أخشى أحدا إذا غضبت .

ينصفق مصراع نافذة فوقهما بشخص يطل منها دون أن يضيء غرفته ، ويقول هامسا :

ـ والآن ،، يا أبناء السكير ،، ألا تذهبان من هنا ؟

«كوزه» يرفع نحوه رأسه ، يغمض عينيه هنيهة . ثم يفتحهما ويقول لأخيه :

ـ السكير يسب أبناء السكير ،، يا للمهزلة !

النافذة تنغلق دون ضجة . «كوزه» يَشُد يَدَ اخيه ويقول :

ـ هيا ،، استعد للمعركة ،، لقد اقتربنا ،،

بقية الزقاق معتمة ، ولكنها غير طويلة . «كوزة» يتقدم بخطوات متمهلة . المخطاف في يده اليمنى مائل نحو فخذه . أخوه يظل على بعد خطوات وراءه. «كوزة» يلصق وجهه بجدار البناية الأخيرة في الزقاق ويحدق أمامه .

ـ كل شيء ساكن . . .

هناك ساحة واسعة من الأسفلت . الظلام يغرق جوانبها كلها . نخلة عجوز تنتصب في ركن منها . إلى يسار الساحة تقوم بناية منخفضة تقع عليها ظلال النخلة.بعد الساحة مباشرة تنتصب هضبة هائلة وترتفع وسط العتمة نحو الأعالي لتلتصق بالسماء . عينا «كوزه» تمسحان الساحة كلها ثم تستقران على البناية المنخفضة . يضع يده على رقبة أخيه ويدفعه إلى الأمام قليلا :

ـ انظر ،، إنه نائم ولا شك ،،

يهمهم أخوه ويقول :

ـ قد يكون شرب كثيرا . . .

يشد «كوزه» حزامه باحكام حول خصره ثم يقول :

ـ سوف نتقدم ،، ستختبيء أنت وراء النخلة ، وسأحاول أنا أن أنبه أمي حتى تفتح لنا الباب دون أن توقظ ذلك الملعون ...

ـ حسنا ، ،

خطواتهما بطيئة وهما يسيران في الساحة . بضعة أمتار ما بينهما . أخوه يتوجه رأسا نحو النخلة . المخطاف يدور تلقائيا في يد «كوزه» اليمنى . يده اليسرى ممدودة إلى أمام. رجلاه الحافيتان لا تحسان بنتوءات الأسفلت . عيناه مثبتتان في مدخل البناية . أخوه يستند إلى جذع النخلة . قفة الصيد تظل في يده . يتبادلان النظر لحظة ثم يتقدم « كوزة» رأسا نحو باب البناية. أذنه اليسرى تلتصق بالباب . ينصت قليلا ثم يطرق طرقات خفيفة ويتراجع . المخطاف يخدش ساقه اليمنى لكنه يتجلد . قلبه يخفق خفقانا سريعا يؤلمه . تنفسه يصير متقطعا رغما عنه .

صوت مهموس يأتيه بعد وقت من وراء الباب ، إنه صوت أمه :

ـ أنت وأخوك جعلتما حياتي مرة كالعلقم ...

يقترب «كوزه من الباب» ، لا يريد أن يجيب بشيء . يده ترتفع بسرعة مشيرا بها إلى أخيه أن يقترب . أمه تعالج قفل الباب وتهمهم ، تبلغه جلبة من داخل الدار .

ـ لقد أفاق الملعون ، ،

صوت الأم يرتفع حادا . لكمَاتٌ عنيفة تتوالى عليها .

ـ إنه يضربها ...

أخوه يتوقف في المسافة بين النخلة والبناية . «كوزه» ينهال على الباب بالمخطاف ، ضرباته سريعة وقوية :

ـ افتحي الباب . . . . سأقتله الليلة ، ،

صوت أمه يزداد حدة . تصرخ بصوت عال قبل أن يرتطم جسدها بالباب في الداخل :

ـ اهرب يا «كوزه» . . . .

الجلبة ترتفع في الداخل ، الجيران يقومون من فراشهم . «كوزه» يعلم أنه لن يجرؤ أحد منهم على التدخل .

ـ اخرج يا ابن الكلبة ، ، ، سأبقر بطنك ، ، ،

أخوه يلتقط حجرا كبيرا قرب النخلة . يتقدم من الباب مسرعا ثم يطوح به بكل ماله من قوة :

ـ يا ابن الكلبة ، ، لن نركع لك بعد اليوم

«كوزه» يزداد حماسا ، ضربات المخطاف على الباب تصير أعنف من الضربات التي سبقتها. يفاجأ بعد لحظات بالباب ينفتح . يتراجع ، ثم ينطلق نحو وسط الساحة ، ويقف إلى جانب أخيه :

ـ سأبقر بطنك الليلة . . .

الأضواء الآن في كامل البناية . صرخات أمه تتحول إلى نحيب .

ـ سأبقر بطنك أيها السكير ...

ـ آه ، ، لعنة الله عليك يا دنيا ، ، سأطوعكما .

ـ اسكت أيها السكير ، ،

« كوزه» وأخوه يتراجعان على مهل .

ـ الدنيا طويلة وعريضة ،، سأطوعكما أيها الحقيران ،،

ـ لن نركع لك بعد اليوم . . .

« كوزه» ينظر إلى أخيه . السرور يغمره .

ـ هيا ، ، لننزل الى الشاطيء . . . سنقضي الليلة في البيت البحري ،،، إنك ملاح حقا .

ينطلقان الآن عبر الزقاق صامتين .

(2) ـ الريح الشرقية :

« انهما قادمان » .

زجاجة الخمر إلى النصف في يده . يأخذ منها جرعة ، ويغرسها في الرمل بين رجليه . ظهره يستند إلى أصل السور . عيناه تختفيان وراء نظارتين سميكتين . شفتاه منكمشتان قليلا . لم يضع طاقم أسنانه اليوم . قطرات خمر تسيل على ذقنه .

الرمل يمتد قليلا ، وبعد الرمل تأتي أمواج خفيفة ، ارتعاشات ترتسم على صفحة البحر . القارب غير بعيد من الشاطيء . إنه ينزلق ببطء ، وراء القارب يمتد البحر نحو أفق شديد الزرقة .

الشمس إلى اليسار تحتجب وراء كتل من السحاب . لم يبق لها إلا وقت قليل وتغيب .

كان قد انتظرهما طويلا داخل البيت البحري ، لكنهما لم يعودا من البحر . يتناول حصاة ويقرع بها عنق الزجاجة في رتابة كعباه ينغرسان في الرمل . الرمل بدأ يميل الى البرودة . أشعة الشمس لم تستلق عليه كثيرا .

«الريح الشرقية ملعونة ، ستأكلهما ذات يوم ، إنهما لا يعرفان شيئا عنها » .

يأخذ جرعة طويلة ، ويرد الزجاجة إلى مكانها . يقذف بالحصاة نحو البحر . البحر يزداد زرقه ، هبات الريح الشرقية ترسم ارتعاشات على صفحته . طيور بحرية تحلق في اتجاه الريح . روائح البول والفضلات تأتيه من فجوة السلم فيبصق باشمئزاز ، ويغطس إصبعه في عنق الزجاجة . ثم يمسح شاربه حتى تطغى رائحة الخمر على الروائح الكريهة .

يوجه أنظاره نحو القارب . إنه يتقدم فوق الماء ولكن في خط غير مستقيم . تأثير الريح الشرقية يبدو واضحا عليه . الرذاذ يرتفع عند مقدمته في بعض الأحيان .

« كوزه عفريت ولكنني سأطوعه » . يجرع جرعة أخرى . لم يبق في الزجاجة إلا الربع . الريح بدأت تؤثر عليه . إنها باردة «الريح الشرقية باردة دائما . الأسماك تكثر عند الشاطيء عندما تهب الريح الشرقية . ولكن الصيد يصير صعبا » بعض الصيادين في الطرف الآخر من الشاطيء يجمعون أدواتهم ، ويستعدون للإنصراف .

الأمواج الخفيفة تتصادم فيما بينها . تزحف نحو الشاطيء ثم تميل الى اليسار . القارب لا يتوقف عن الانزلاق فوق الماء . ظهر «كوزه» يميل إلى الأمام ، ثم يتراجع .

«إنه عفريت حقا !» .

يجرع ما تبقى في الزجاجة . يطرح الزجاجة فوق الرمل . يستند إلى السور بكلتا يديه ويقوم . السترة الزرقاء مفتوحة على صدره .

يمسح نظاراته بسرعة . عيناه تتابعان حركة القارب فوق الماء . يتقلم قليلا .

القارب يهتز يمنه ويسره ثم يتوقف . «كوزة» ينظر في اتجاه الشاطيء . حركاته خفيفة . أخوه يقف قبالته . «كوزه» يلقي بيده تحت العارضه الخشبية . يتناول شيئا ثقيلا . أخوه يشير ناحية اليسار. القارب يهتز وتدفعه الريح نحو اليسار .

يثني سرواله حتى ركبتيه ، ويتقدم نحو الماء . الموج يغمر قدميه . الرذاذ يرتفع فيستقر على نظاراته . حركاته سريعة . يضع يديه معا إلى جانب فمه ويصرخ :

ـ حذار ، يا «كوزه» ، هناك بعض الصخور . . .

«كوزه» ينظر ناحيته الآن ، القارب ينحرف نحو اليسار ويتعثر بصخرة رأسها لا يكاد يبين . الرذاذ ينتشر فوق القارب. يضغط «كوزه» وأخوه على حنية القارب اليمنى حتى يخلصاه من نتوءات الصخرة حركاتهما خفيفة منتظمة . القارب يهتز بقوة ثم يستقر فوق الماء. «كوزة» يقفز إلى المجذافين. أخوه يجلس قبالته ويداه تضغطان على حنيتي القارب .

ـ «كوزه» ،، «كوزه» ،،، إنها الريح الشرقية ،، أدخل ،،

يذرع الرمل طولا وعرضا . الموج يلطمه حتى خاصرته . يخلع نظاراته ويمسحها بسرعة على سترته الزرقاء . عيناه تعودان إلى متابعة القارب . بعد قليل يلقي بسترته فوق الرمل ويبقى عاري الصدر .

ـ «كوزه» ،، ادخل ،، إنها الريح الشرقية ،،

«كوزه» يدير رأسه تجاه الشاطيء ، ثم ينطلق في التجذيف بسرعة . القارب يهتز ثم يرتفع وَيَتَطَامَنُ مع الموج . الرذاذ ينتشر فوقه .

يتراجع . يأخذ سيجارة من سترته ويضعها بين شفتيه دون أن يشعلها .

«يستحيل أن أطوعهما» .

هناك لغط في أعلى السور ، يرفع رأسه.عدد من الناس يتابعون حركة القارب ، «الملاعين ، يزجون أنوفهم في كل مكان» .

« كوزه» يضرب الآن بالمجذافين فوق الماء حتى يتفادى الارتطام بالصخور الناتئة عند الشاطيء . القارب يهتز ولكنه ينزلق نحو الشاطيء .

بعد هنيهة يندفع مع الموج فوق جانب من رمل الشاطيء .

الأب يقف موسعا ما بين رجليه . السيجارة على جانب من شفتيه

شعر صدره كثيف . هناك وشم لأَفْعَى وامرأة ترقص على ذراعه اليسرى . أعلى كتفه اليسرى يبرز رقم بالوشم (9021) ، إنه رقم السجن اللغط يزداد في أعلى السور . يرفع نظرة جانبية ، ثم يحدق في « كوزه » .

ـ والآن ،، لقد عدت !

«كوزه » يظل فوق القارب . المخطاف في يده اليمنى . الحبل يتدلى من المخطاف ويتأرجح مع حركة الماء . لم يكن يتوقع أن يجده في الشاطيء وإلا لكان اتخذ كل استعداداته . أخوه يقوم من مكانه عيناه الحولاوان تتفرسان وجه أبيه . في يده قطعة خشبية غليظة :

ـ الأفضل لك أن تبقى في مكانك ، ، ،

«كوزة » يقفز من القارب . موجة عنيفة تلطم ظهره . المخطاف في يده دائما . عيناه تترصدان حركات أبيه .

ـ هل تضربني يا «كوزه» ؟

«كوزه» يزداد تفرسا في وجه أبيه . اللغط يتوقف فجأة في أعلى السور .

ـ هيا ، ، تراجع ، ، دعنا ندفع القارب ، ، دعنا وشأننا ، ،

يقفز أخوه من القارب . يتقدم قليلا ويشد القارب من مقدمته دون أن تحيد نظراته عن أبيه . القطعة الخشبية الغليظة في يده اليسرى . بعد قليل يقول لأبيه :

ـ دعنا وشأننا ... عد إلى دارك ...

الأب يتناول سترته ويضعها على كتفيه . يلفظ السيجارة ويسحقها بقدمه فوق الرمل . يستعد للذهاب ثم يدور نحوهما .

ـ سأعينكما على دفع القارب ، ،

«كوزة» يقاطعه محتدا :

ـ كلا ، ، إنك سكران .

ـ قلت . . سأعينكما . . .

الأب يرفع رأسه نحو أعلى السور في حركة سريعة :

ـ تفرقوا يا كلاب .. إنكم تضعون أنوفكم حتى وسط الفضلات ...

« كوزة» ينظر نحو أخيه . شيء ما يتغير في وقفته . يسند المخطاف الى فخذه اليمنى . لم يعد يمسكه باحكام . ينظر نحو ابيه بعينيه الكبيرتين .

جلدة جبهته محمرة من أثر الشمس .

ـ أتساعدنا إذن ؟ ، ، ولكن يجب أن تتركنا بعد ذلك ، ،

الأب ينقل نظرات عجلى بينهما . نظاراته السميكة مائلة فوق أرنبة أنفه . حمرة شديدة تظهر على عينيه .

ـ كم عمركما الآن ؟

ـ عمرنا لا يهمك . .

ـ بل يهمني . . .

ينظر « كوزة» نحو أخيه ثم يقول :

ـ سنبلغ السادسة عشرة في شهر مارس القادم . . .

الأب يقترب من مقدمة القارب . رائحة الخمر تصل «كوزة» :

ـ إنك سكران دائما ... لم أرك صاحيا منذ عهد طويل ...

الأب يشد مقدمة القارب بكلتا يديه. «كوزة» يطرح المخطاف فوقالقارب وينظر إليه :

ـ وأمي ؟ ، ماذا حدث لها ؟

ـ إنها في الفراش .. ارتطمت ليلة أمس بالباب حينما ضربتها ..

« كوزه» يسترق إليه النظر. إنه لا يدري سبب الحمرة في عيني أبيه . «لعله يبكي ! يستحيل لمثل هذا الرجل أن تعرف الدموع طريقا إلى عينيه . سجون فرنسا كلها لم تنل منه» .

يدفع ثلاثتهم القارب نحو البيت البحري ويسندانه إلى الأعمدة . يتناول « كوزة» المخطاف ويلوي حوله الحبل المشدود إليه ويلقي أخوه بالخشبة الغليظة بين الأعمدة . الأب يتناول قفة الصيد ويقول :

ـ إنها ثقيلـة ....

الريح الشرقية تصفر الآن . الأمواج تتصادم في عنف . الزبد ينتشر في أماكن عديدة من صفحة البحر .

ـ الريح الشرقية عنيفة . .

يستعد «كوزه» للدخول إلى البيت البحري . أخوه يجمع أدوات الصيد على استحياء ، الأب يترصد حركاتهما ثم يقول :

ـ الريح الشرقية عنيفة يا «كُوزه» ،، أنت لا تعرفها ،،

«كوزه» يوجه نحو أبيه نظرة جانبية ، يهم بأن يقول شيئا فيتوقف ، تعاوده الشجاعة فيقول :

ـ والآن ،، عد إلى دارك ...

يشعل أبوه سيجارة على مهل ، ويحدق في البحر ، لكنه سرعان ما يخاطب «كوزه» .

ـ بل ستعودان معي . . .

«كوزه» يضرب بقدمه الأرضية الخشبية لمدخل البيت البحري :

ـ لن نعود معك . . . .

ـ هذا البيت البحري لم يعد صالحا للمبيت فيه . . .

المكان الذي يوجد فيه «كوزه» مرتفع قليلا . يتقدم وهو يحدق في أبيــه :

ـ لقد طردتنا . . .

ـ لا تقل مثل هذا الكلام يا «كوزه» ،،

صمت عميق يسود بينهم ، الأمواج تندفع الآن بين الأعمدة، وصفير الريح الشرقية يزداد حدة . الأب ينظر إلى الأمواج وهي تمتد وسط الأعمدة ، ثم يحدق في قفة الصيد :

ـ سيصعب عليكم الخروج إلى الصيد وسط هذه الريح ..

« كوزه» ينظر نحو أخيه . ابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيه . أخوه يبادله نفس الابتسامة ويواصل جمع الأدوات .

الأب يمسح نظارته من جديد . يبدو عليه أنه ينتظر ردا حاسما . يتنحنح قليلا ويقول :

ـ هل تعرف الريح الشرقية يا «كوزة» ؟

ـ أجل .. أعرفها .. إنها خطيرة ومقلقة ..

يضحك أبوه ثم يقذف ببقية سيجارته بين الأعمدة ويقول :

ـ ولكنكما لا تعرفان أنها لن تهدأ قبل خمسة أو ستة أيام ..

ـ إننا نعرف ذلك ...

الأب يضع كلتا يديه على صدره . يفركهما بسرعة وهو ينظر ناحية «كوزه» :

ـ إنها ريح باردة ...

ـ نعرف ذلك أيضا . . .

ـ لنعد إلى الدار إذن ، فهي لن تهدأ قبل أيام ... ولن يتسنى لكما الخروج إلى الصيد خلال ذلك ..

عينا « كوزه» تلتمعان . لا يستطيع أن يقول شيئا .. أخوه يقوم على مهل من مكانه بعد أن جمع الأدوات . الأب يتناول قفة الصيد ويتقدم فوق الرمل ببطء .

ـ ضع المجذافين على كتفي يا « كوزه» .

يسير ثلاثتهم على مهل . خطواتهم تنغرز في الرمل . فجوة السلم أمامهم بدأت تتسربل بالظلام . يتوقف «كوزه» . يتناول زجاجة الخمر

الفارغة . يتأملها وسرعان ما يطوح بها بقوة نحو جدار السور العالي فتتناثر أجزاؤها .

وراءهم تمد الأمواج السنتها نحو رمل الشاطيء ويزداد صفير الريح الشرقية حدة .

قَطَّاعْ الرّجْـل

قَطَّاعْ الرِّجْـل

(1) حي قطاع الرجل :

رويدكم ، فالحياة صارت ثقيلة كالرصاص .

إنها أثقل مما مضى ، وأنا أدرى بمثل هذه الوطأة . لقد شهدت حروبا ، وأحسست بوقعها الحديدي غير ما مرة وتحملت رواسبها . وأعترف لكم أنني بعد الحرب الأخيرة أصبت في مقاتلي . فالشيخوخة زحفت على دفعة واحدة وصار من المستحيل أن أصمد في وجه التغير المفاجيء . إنني أدرك تمام الإدراك أنه اعتراف خطير ، وأنى لي أن أتجنبه والموت العاصف ينتظرني عند الأبواب ! قبل أسبوع واحد ، قطعوا جزءا من أوصالي العليا التي تربطني بالطرف الآخر من المدينة .

حكايتي قد تطول وقد تقصر .

لقد ولدت في ذهن معمارى لا يعرف التاريخ له اسما ، ونيفت على أربعة قرون . كاتاروجيل ! هكذا يقول اللوح المكتوب بالاحرف اللاتينية ولست في الحقيقة إلا قطاع الرجل . وهذا الاسم غريب حقا ، كما ترون . وأنا لا أكاد أذكر شيئا في هذا المصار . خلاصة القول هي أنني زقاق طويل في قلب القصبة ، أمتد من الجانب السفلي إلى غاية

الجانب العلوي الواقع في الشرق . ولعلكم تعلمون أنني فقدت هيبتي منذ زمن طويل . فالناس كلهم يعرفون أنني حي المواخير . لو أنني استطعت أن أجد تفسيراً لاسمي الحقيقي ، لأقنعتهم بالعدول عن هذه الصفة التي ألصقوها بي . وان كانت هذه هي الحقيقة في واقع الأمر .

لا مناص لي من الحديث عن وطأة الحرب الأخيرة ، لأنها حطمتني شر تحطيم !

مدافع الغزاة الإسبان ما كانت لتنال مني . وهجمات السلب والنهب التي شنها الفرنسيون لم تترك بصماتها ، غير أن هذه الحرب تركتني أتقوقع على نفسي لألوك أمجادي وتاريخي . وأنتم تعلمون أن الفقراء هم حطب الحرب ووقودها المفضل . لذلك لم يكن عجيبا أن يكونوا من السباقين إلى خوضها ، ظَنّاً منهم أن عهد الجوع سينقضي إلى الأبد . غير أنهم ما كانوا يعرفون شيئا عن هذه العملية الجهنمية ، فوقع ما لم يكن في حسبانهم ، ولم يحصلوا إلا على النزر اليسير كما يقال . وأنا الآخر ، كنت أظن أنني سأجني ثمرة مقابل الضحايا الذين قدمتهم ، لأنني كنت أدفع لأول مرة في وجودي كله مثل ذلك العدد من المحاربين إنني لا أكاد أذكر عددهم في أيامنا هذه .

كيف كانت النتيجة يا ترى ؟

أحسب أنكم لا تعرفونها . إذن خذوها بحذافيرها !

كلكم تعرفون قدور البطل ! أليس كذلك ؟ . بعد الحرب مباشرة اضطر العائدون إلى أن يجمعوا بعض المال لوالدته كي يشتروا لها فراشا تنام عليه ، هناك في تلك الغرفة السفلية التي تقع في المنعطف . إنني أكره الإفضاء بمثل هذه الأمور ، غير أن الحقيقة هي الحقيقة . ثم إنني بلغت سنا لم أعد أخشى معها شيئا. أطرافي تآكلت ، وكنت

أظن أنهم قد يتفهمون وضعيتي هذه ويعملون على حفظ التاريخ ، لكنهم لم يفهموا شيئا من هذا القبيل . كل ما في الأمر هو أنهم تركوني أموت شيئا فشيئا ، وأفسحوا المجال لدخول عائلات فقيرة إلى هذا المكان .

بربكم ، هلا نظرتم إلى هؤلاء الأطفال ! المحظوظون منهم لم تمتلىء بطونهم الا بالخبز والماء وبعض الطماطم التي سرقوها من السوق . حتى اباؤهم عاجزون عن إرسالهم إلى المدرسة لنقص ذات اليد . وتلك المرأة التي تبيع جسدها هناك ، في ذلك البيت الضيق الواقع على أطراف الزقاق ، اتعرفونها ؟ إنها تعلم تمام العلم أن جسدها لم يعد يصلح للبيع منذ زمن طويل . ولكن لا سبيل لها إلى الأكل سوى أن تعرض بضاعتها الكاسدة . العديد من أمثالها أغلقن أبوابهن ، ولست أدري كيف تصل لقمة الخبز إلى أفواههنّ .

أرجوكمْ ، لا تستفزوني كثيرا،فقد أفقد وقاري . كنت أظن أن الحرب الأخيرة هي الخلاص الوحيد ، والعكس هو الذي حدث . فلقد ازددت فقرا على فقر . وظللت حي المواخير بالقصبة .

أتريدون الحقيقة الساطعة ؟ .

رأيت الأثرياء يزدادون ثراء . ولا من أحد يضرب على أياديهم ، واستطاع قدور أن يكون خلفا لموريس في العديد من الأحيان .

ألا ما أشد نفاقكم ! إنكم تعرفون مثل هذه الحقيقة ، غير أنكم تجدون لذة في أخذها من هرم مثلي . الأفضل أن أسكت عنكم . فأنا أنتظرهم هذه الأيام . لقد قرروا أن يهدموا جزءا مني حتى يستطيع السواح زيارتي دون أن أُهَدِّدَ بالإنقضاض عليهم .

(2) **الزانية :**

هذا الصباح فيه مذاق الرماد .

حي قطاع الرجل يبدو رماديا ، ولعل انعكاس أشعة الشمس هو الذي يخلق مثل هذا اللون الكابي .

الزقاق يلتوي كعادته ، ويتداخل في ذاته ، ويؤثر السكون ، أما هذه السلالم الفرعية الضيقة فتحاول أن تفسح المجال للحياة العادية . انفتح باب خشبي صغير ، وأطل منه وجه امرأة بين الخامسة والأربعين والخمسين من العمر . نظرات بعض المارة استقرت على هذا الوجه بعض الوقت ثم انسحبت عنه ، إنه لا يكاد يشجع الإنسان على التحديق فيه طويلا . أبرز ما فيه هو ذلك الأنف الأقنى الذي ترتفع فوقه عينان ضيقتان ، ويستقر أسفله فم منكمش فقد أسنانه الأمامية .

المرأة تفتح الباب كله ، فينطلق بكاءطفل في الثالثة أو الرابعة ، وسرعان ما يظهر كلب عند العتبة . هناك دكة خشبية عليها غطاء قديم . ذلكم هو المكان الذي تضاجع فيه هذا المرأة زبناءها إنها تقف عند العتبة بجوار الكلب وتنظر نحو الناحية العلوية حيث يتقاذف عدد من الأطفال كرة من الورق في حدود مساحة ضيقة كانت فيما مضى بيتا للدعارة . عيناها الضيقتان تحاولان أن تتبينا أحد الأطفال ، ثم ينطلق منها صوت متهالك : (حميد). ولا يلبث الطفل أن يسارع إليها وسط سخريات أصحابه . الحديث بينها وبينه ليس طويلا . فقد سلمته قفة صغيرة وطلبت منه أن يسرع الى السوق ويشتري لها الطماطم . ويبدو أن الأطفال غاضبون بعض الشيء ، لأن اللعبة لم تعد متساوية بينهم بسبب ذهاب رفيقهم . أحدهم يتناول مَانْدُولِينَة ليس فيها إلا الخيط الرابع ، ويحاول أن يعزف لحنا شعبيا فيعجز ، ثم يطرحها جانبا في مكان من الساحة ويدخل في حوار مع أصحابه عن كيفية مواصلة اللعبة .

المرأة تنزع الغطاء عن الدكة الخشبية وتُنفُضه عند الباب ، فيتذمر المارة غير أنها لا تعيرهم اهتماما . هناك فرن صغير وسط البيت وقد وضعت عليه قدرا صغيرا . تعيد الغطاء إلى مكانه ، ثم تميل نحو القدر ، فتحركه قليلا .

الطفل جالس على الأرض وليس على جسمه الا قميص خفيف . يده اليمنى تعبث بذنب الكلب ، بينما يشد باليسرى قطعة من خبز . المرأة تعصب خمارا على رأسها ، وتحدق في الطفل وكأنها تريد أنْ تقول شيئا يبعثها على القلق ، تتردد هنيهة ، ثم تميل عليه وتمسح المخاط عن أنفه بخرقة ، وتعاود التحديق فيه . عيناها تلتمعان وكأنها تذكرت شيئا محزنا . (يبدو أن أمك لن تعود ، وليتك تعلم أنها لن تعود !) . تقوم من مكانها وتستقصى ابعاد الحجرة الضيقة التي تعيش منها وفيها . يتضح من نظراتها أنها تريد أن تجد مكانا للطفل حتى يستطيع النوم فيه (لوكنت تقفز على رجليك كهؤلاء الأطفال لما طرحت لي أية مشكلة . إنني أكره أن يدخل علي رجل وأنت هنا معي) .

الحركة عادية في السلالم ، غير أن بعض المارة يتطفلون على ما في داخل الحجرة فتحدجهم المرأة بنظرات ناقمة . والأطفال في الساحة الصغيرة عادوا إلى اللعب مطلقين بين الفينة والأخرى صرخات متقطعة . المرأة تجلس عند العتبة إلى جانب الكلب ، وفي حجرها عدد من حبات البطاطا تقشرها بحركة رتيبة . بهذه الطريقة ستضع حدا لتطفل المارة ، ثم هي تعلم أن الزبناء لن يأتوها في مثل هذه الساعة من الصباح . حنجرتها تنطلق في الغناء دون أن تتوقف عن تقشير البطاطا : (ياقنديل البيت اللى تحول) . الطفل يستند الى ظهرها فتوجه نحوه نظرة جانبية وتبتسم ، ثم تحاول الإستمرار في الغناء ، غير أنه يحاول أن يستلقي ظهرها فتتوقف . (لوجئتنى قبل هذه الازمنة اللعينة لاستطعت أن

أتكفَّلَ بك وأبعثك إلى المدرسة . ليتك تعلم أنني لا أكاد أحصل على خبزي الضروري) وتصمت المرأة . تميل بجذعها نحو الجهة العلوية من السلالم وتتنهد .

القدر في الداخل بدأت في الغليان . يبدو أن الكلب لا يحب الأصوات المتولدة عن الغليان ، فقد بدأ يهز ذنبه في قلق ، بينما راحت عيناه تطرفان . تنظر المرأة إليه في عطف : (لا تخف . فالقدر لن يتدفق عليك هذه المرة !) وتعمد إلى القدر وتحرك ما بجوفه بملعقة خشبية ، ثم تعود إلى مكانها على العتبة . ويتخذ الطفل هو الآخر مكانه على العتبة ، فيتراجع الكلب قليلا ليفسح له المجال . تعود المرأة إلى الغناء ، وتكرر نفس الكلمات : (يا قنديل البيت اللي اتحول . ما حاجتى بك الليلة) ثم إنها تتوقف دفعة واحدة ، وقد غير الغضب ملامحها ، وتنظر إلى حجرها وهي تهمهم . لقد تبين لها أن معظم حبات البطاطا متعفنة . الغضب يتحول إلى حزن شيئا فشيئا ، ثم تواجه الطفل وراءها ، وتريد أن تقول له بعض الكلمات وسرعان ما تعود إلى جلستها وتسند جبهتها إلى يدها اليسرى وتظل مطرقة برأسها .

في هذه اللحظة بالذات ، يندفع أحد الأطفال من الساحة العلوية الصغيرة نازلا لالتقاط الكرة التي تدحرجت فوق السلالم ، وتتتابع وراءه نداءات الأطفال مستعجلة إياه . غير أنه يلتقط الكرة ، ثم يرسل ابتسامة نحو المرأة ويلعق شفتيه : (ما الذي تطبخينه ؟) ولا يأتيه أي جواب منها ، فيقترب ، ويلاعب الكلب والطفل ، ثم يقول للمرأة وهو متأكد من نفسه : (سوف أتناول بعض الحساء معك عندما تفرغين من إعداده) . ويندفع صاعدا السلالم في سرعة .

وتظل المرأة مطرقة الرأس .

(3) **الطفــل :**

لقد بدأ صعود السلالم المتعرجة المفضية إلى حي قطاع الرجل .

صعوده متثاقل ، وخطواته غير عادية . يده اليسرى تمسك بالقفة أما اليمنى فهي موضوعة أفقيا على أنفه . إنه يصعد ويصعد ثم يتوقف ويطلق سعالا ، ويمسح أنفه بكم قميصه . خيط من الدم ينسحب على خده منطلقا من أنفه . لا يبدو عليه أنه يبكي مع أن عينيه حمراوان . إنه يتوقف على بسطة السلالم ويضع القفة جانبا . عدد من الأطفال يتحلقون حوله ، وهم ينظرون إليه دهشين . ويتهامسون فيما بينهم ، فيزعم البعض منهم أنه تلقى صفعة ، بينما يدعى البعض الآخر بأنه تشاجر مع أطفال الحي السفلي من القصبة . أما هو فلا يكاد يسمع إليهم بجد ، فقد انهمك في تنظيف وجهه ، وراح يمسح آثار الدم المتجمد على أطراف يده اليمنى . إنه لا يريد أن تعرف المرأة شيئا مما حدث له . فقد ترق له ، غير أنها سوف تفضي بالأمر إلى والده، إنها تعرف والده منذ زمن بعيد ، فهو يكاد يكون الوحيد الذي يوجه لها التحية من أبناء الحي ، ويتبادل معها بعض الكلمات المقتضبة .

لقد ابتعد الأطفال عنه بعد أن أشاح بوجهه عنهم . تناول القفة واستمر في الصعود . لم تبق أمامه سوى هذه العطفة الصغيرة ويطل بعدها على حي قطاع الرجل . علامات القلق تظهر عليه ، ويده اليمنى تعاود مسح وجهه كأنه يستوثق من أن آثار الدم قد زالت عنه تماما . توقف عند العطفة قليلا وجعل يسترق النظر إلى المرأة وإلى الأطفال في الساحة العلوية الصغيرة . وخمن بأنه ينبغي عليه أن يسارع إلى المرأة ويطرح القفة أمامها ثم يندفع نحو الساحة العلوية حتى لا يفتضح أمره. وراقت له الفكرة ففعل ، ووجد نفسه وجها لوجه مع المرأة . حاول أن يتخلص من نظراتها ويندفع في السلالم ، غير أنها كانت

قد شدت يده اليمنى شداً محكما . وانتشرت الحمرة بسرعة في كامل وجهه فأطرق برأسه . إنه يسمع التنهيدة التي ترسلها المرأة وهو يعلم الأبعاد التي تحملها في طواياها .

إنه يحس الآن بيدها تنزلق شيئا فشيئا عن رسغ يده ، ومع ذلك فلم تعد به أية رغبة في الإنفلات منها ومن أسئلتها . تكفيه هذه النظرات الضيقة المليئة بالحسرة . شعر فجأة بالدافع إلى البكاء ، والتمعت عيناه بالدموع ، غير أنها انتهرته بحركة من يدها ، لَكَأَنما ساءها أن تراه باكيا . إنه لا يبكي بدافع الخوف ولا بدافع الحياء . هناك شيء مبهم في ذاته يسحثه على إطلاق العنان لدموعه . ويدرك آخر الأمر أن ذلك الشيء ليس سوى الفقر . إنه لا يعرف ما الفقر ، بل لا يكاد يشعر به ، ولكنه حين يجد نفسه وجها لوجه مع ذلك الشيء المبهم يعرف حقيقته .

لن يقوى على التحرك من هذا المكان . إنه يحس بأنظار رفاقه من الأطفال تنهال عليه من الساحة العلوية. ويشعر وكأنَّ نداءاتهم المتكررة تقرع أذنيه قرعا . ويزداد إطراقا برأسه ، محدقا في ثقوب العتبة . لن يخلصه شيء من وطأة الوقفة سوى أن يفضِي للمرأة بما حدث له . هذه هي عادته التي تتكرر مرتين أو ثلاث مرات في الشهر الواحد . ومع الإبهام الذي تصطرع به نفسه ، يبرز تساؤل ملح في ذهنه «لم يا تراها تصر على أن ترسلني إلى السوق وهي تعلم أنني لن أضبط يدي أمام السلع المتراصة ؟» .

أحس بضغط على يده ، فأدرك بأن اللحظة المنتظرة قد حانت . وصعد العتبة وهو يتفادى قدمي الطفل وذنب الكلب . ثم إنه جلس على طرف الدكة دون أن يرفع رأسه . لم يكن ليشعر بالخجل أمام نظرات الفضوليين من المارة ، فالعيش في حي قطاع الرجل أمر عادي

جدا ، بل إن هذا الحي لا يختلف في نظره عن بقية الأحياء الأخرى إلا بفقره المدقع. وفيما عدا ذلك فإنه لا يكاد يُعيرُ اهتماما لما يجري حواليه.

قلبه يخفق بشدة في هذه اللحظة . فهو يدري بأن أسئلتها قد تنهال عليه دون مقدمات . هذه هي اللحظة التي يعاني فيها ما يعاني ، يحاول بقدر الإمكان ألا يصرعه السؤال المفاجيء ، ويجد نفسه آخر الأمر منطرحا منهزما . لقد رفع رأسه قليلا ، وراح ينظر إليها وهي تحرك القدر ببطء ، ثم إنه أبصر بها وهي تلاعب الطفل ، وتقف عند العتبة مولية ظهرها له . الطفل يقترب منه ، فينحني حتى يلاعبه ، وقد نسي لبضع ثوان ما ينتظره . وإذا بالسؤال يأتيه قاطعا : «ماذا سرقت» .

ندت عنه حركة مضطربة من رأسه ، وازداد خفقان قلبه . عليه الآن أن يفكر في الإجابة ، فهي لن تسمح له بالخروج طالما لم يفض لها بما عنده . وهل له أن يفكر ويحاول مداراتها وهي تعلم ما أقدم عليه ؟ وأعادت عليه السؤال في شيء من العنف «ماذا سرقت» ؟ وأدرك هذه المرة كعادته أن الجواب الصريح هو الذي ينقذه من هذه المرأة ، ومن ذلك الشيء المبهم الذي يستقر في ذاته . أوضح لها في البداية متلعثما أنه كان يمر بين طاولات الخضر عساه يعثر على الطماطم ، وإذا بصندوق من الزيتون الملتمع يظهر أمامه إلى جانب إحدى الطاولات . ولم يحاول أن يزيد في توضيحه ، فهو يعلم أنها ستقوم بالبقية . وهزت رأسها وقد ارتسم على وجهها ما يشبه اليأس وقالت : (طبعا ، أنت لم تستطع أن تمالك نفسك ، فأخذت قبضة من ذلك الزيتون ، أليس كذلك ؟) وأجابها بحركة عمودية من رأسه وعيناه تستقران على جانب من جدار الغرفة . لقد ظهرت لها الحقيقة الآن ، فلم لا تتركه وشأنه ؟ يبدو أنها تعرف سبب ذلك الخيط الرقيق من الدم المستقر تحت أنفه .

وبحركة سريعة ، مرر قميصه على أنفه ، فلاحظت ما بدر منه وسألته إذا ما كان قد تلقى صفعة من صاحب الطاولة ، ورد عليها أن نعم . ثم إنه أبصر بها وهي تتلفظ بأقذر الشتائم وترسل تهديدات طويلة . ووجد الفرصة سانحة ، فحاول القيام من مكانه إلا أنها أوقفته وهي تحدق في وجهه بعينيها اللوزيتين الضيقتين ، وسألته إذا ما كان صاحب الطاولةقد هدده بأخذه إلى مقر الشرطة فلم يكن له بد من أن يفضي لها بالحقيقة الكاملة .

ورآها تبادر إلى اطفاء الفرن الصغير ، فأدرك بأن الواقعة لا مفر منها . إنه يدري الآن بأن السوق سوف ينقلب بعد حين رأسا على عقب . ثم إنها عصبت رأسها ، وغطت جسدها بملاءة رقيقة ، وشدت الطفل الذي كان يلعب بين قدميها من خصره ، وأغلقت الباب دون أن تكف عن السب والشتم . وخرج من الغرفة وقد زايله الخفقان العنيف ، وجعل يحدق فيها وهي تنزل السلالم بحركات غير مضبوطة ، وتغيب في عطفة صغيرة ، في حين كان المارة يتوقفون صامتين وهم ينظرون نحوها .

وجعل يصعد السلالم التي تفصله عن الساحة الصغيرة بخطوات متباطئة ، وهو يفكر في العشية وما ينتظره من والده . إنه يدري الآن تماما بأن الخبر سوف يصل مسامع والده . فالضجة التي ستحدثها المرأة بعد قليل في السوق ستكون في علم الناس جميعا . ولم يعر أدنى اهتمام لإلحاح رفاقه على اللعب معهم ، فقد كان غارقا في همه الكبير . وجلس عند سور الساحة مستندا بظهره إليه ، بينما راحت أصابعه تتحرك بحنو على خيط ماندولينة منطرحة إلى جانبه . وأحس بنفسه وحيدا مثل خيط الماندولينة تماما .

4) الماندولينة :

«لو نعيد همومي نعمر ألف كتاب» (1) .

وما عساني أقوله بعد هذه السنين الطويلة سوى أن أبكي حظي العاثر ؟ ها أنذا الآن منطرحة في هذا المكان من الساحة بعد أن كنت السيدة المبجلة في مقاهي القصبة . ما كنت أتصور يوما أنني قد أقع في يد هذا الحفيد الشقي الذي خلفه سي عبد القادر.

يقولون إنني ولدت في مقاطعة الالزاس سنة 1925 على يدي صانع ماهر . والعهدة في ذلك على تلك الخطوط البنفسجية المنقوشة في جوفي : «أميديو ديودوني . الالزاس 1925» . تاريخ ميلادي لا يهم . خلاصة القول هي انني صرت ملكا لسي عبد القادر في السنة التالية . كان يعمل في الميناء تبعا لما يمليه عليه مزاجه ، وإن كان في حقيقة الأمر يعيش مما يدره عليه الماخور الواقع في الطرف الغربي من حي قطاع الرجل . كان يفرض سيطرته على ست نساء ، ولم يكن ينزل للعمل في الميناء الا ليبعد عنه تحريات رجال الشرطة ، وفيما عدا ذلك كان لا يغادر حي القصبة إلا للحصول على «الكيف» ثم يعود إليه لقضاء الليالي في الحانات مع رفاقه . وكنت بدوري ملازمة لسي عبد القادر كظله .

أروع ما كان ينطوي عليه سي عبد القادر من اخلاق هو أنه كان يقف إلى جانب الضعفاء دائما وأبدا ، ولا يفرض سيطرته إلا على النساء اللواتي كن راضيات باحتراف البغاء . والطريف فيه أيضا هو أنه لم يكن يحمل أسلحته النارية إلا بعد أن تغرب الشمس لكأنه كان يريد أن يقهر الظلام وما يأتي به من بحارة وعشاق مغامرات .

ذات يوم من سنة 1935 ، عاد سي عبد القادر إلى بيته الذي يقع بنهج الاميرة «نفيسة» وسط القصبة ، وكان مخمورا جدا ، يضمني إليه باليد اليمنى وتتدلى من يده اليسرى زجاجة خمر لم يبق منها إلا القليل . ولم يكن من عادته أن يصحب معه الخمر إلى الدار ، ولعله كان يظن أن والدته لن تبصر به في الهزيع الأخير من الليل ، غير أنه ما إن دخل الدار حتى كانت والدته قد أشعلت القنديل وراحت تستعد لاستقبال الفجر . ويا للدهشة عندما انطلقت منها صرخة حادة ، وقد وقعت أنظارها على زجاجة الخمر . لعلها كانت أمام مثل ذلك المشهد لأول مرة في حياتها . ذلك أنها راحت تصرخ ، وتضرب صدرها ، بينما ظل سي عبد القادر واقفا عند مدخل الدار وقد عقدت الدهشة وجوده كله ثم تحول صراخها إلى بكاء عندما التف الجيران حولها يواسونها .

هذه الحادثة البسيطة حولت مجرى حياة سي عبد القادر وجعلته يقلع عن معاقرة الخمر ، ويحرر النساء اللائي كن تحت سيطرته . أما أنا فظللت في صحبته ، وإن كنت قد تحولت إلى المدائح الدينية بين أصابعه . وتزوج سي عبد القادر وأنجب والد هذا الحفيد الشقي الذي يجرجرني صباح مساء في حي قطاع الرجل .

وَمَا كان السلوك الجديد الذي اتبعهسي عبد القادر ليقع موقعا حسنا في نفوس رجال الشرطة السرية . لذلك راحت تقتفي آثاره أينما حل وارتحل . وضاق ذرعا بمثل تلك التحرشات ، فلم يجد بدا آخر الأمر من الذهاب الى رجال الشرطة والإستفسار عن الأسباب وكان الرد قبيحا وَقحاً . واضطر سي عبد القادر في سنة 1936 أن ينضم إلى حزب الشعب الجزائري حتى يقوى على مواجهة رجال الشرطة بطريقة نظامية دون أن يلجأ إلى استخدام طرائقه السابقة .

ورأيت سي عبد القادر يتحول من رجل فتوة يفرض سيطرته على قطاع عريض من حي المواخير بالقصبة إلى رجل سياسي يحاول أن يستخدم ذكاءه ضد السلطات . غير أن حياته السابقة دفعت بالمسؤولين عنه داخل الحزب الى أن يجعلوا منه رجل المبادرات . فحيثما اقتضى الأمر استخدام القوى والعنف ، كان سي عبد القادر هو المعني بالأمر في المقام الأول . وأعجبته المكانة التي احتلها بين أفراد الحزب ، غير أنه كان شديد الحماس وهذا ما دفعه إلى الهلاك .

وعلى الرغم من أنه ظل سنتين كاملتين دون أن تستطيع الشرطة إيقاعه في الفخ ، إلا أنه وجد نفسه ذات يوم من بداية سنة 1939 يبادر إلى مساعدة أحد المستخدمين المستضعفين . وكانت بادرته تلك تلقائية لم يتبع فيها أوامر الحزب . إني لا أزال أذكر ذلك المستخدم الذي طرق عليه باب بيته ذات مساء وهو يبكي لأن صاحب الحانة التي يعمل بها رفض أن يدفع له أجرته الأسبوعية بعد أن كسر دُونَ عَمْد عددا من زجاجات الخمر . وانطلق سي عبد القادر إلى الحانة ، وأرغم صاحبها الأوربي على دفع ما عليه من حساب لذلك المستضعف . وما إن غادرها حتى كانت الشرطة تحاصره وتقتاده إلى السجن .

واشتبه في أمر سي عبد القادر . واذا شئتم الحقيقة فإنهم حملوه اتهامات ليست له أية علاقة بها ، ووجد نفسه آخر الأمر في السجن ، فحاول الفرار غير أن السلطات كانت قد أضافت نشاطه الحزبي إلى قائمة الاتهامات الملفقة ضده .

لست أعرف بالتدقيق ما حدث له بسجن الحراش ، فكل المعلومات التي لدي التقطتها من بعض الذين عرفوه عن كثب في السجن ، وجاءوا إلى الدار ليرددوا بطولاته على والدته وزوجته وابنه . فقد سعى في السجن إلى تنظيم عدد من رفاقه ، واصطدم آخر الأمر

بأحد الحراس ، وبعد مشاجرة كلامية كان ذلك الحارس ينطرح أرضا والدماء تسيل من جبهته على إثر ضربة وجهها له سي عبد القادر برتاج حديدي كان يحمله معه دائما وأبدا .

وحوكم سي عبد القادر في بداية الحرب العالمية الثانية . وكان الحكم قاسيا . ثم انه خير بين السجن والتطوع في اللفيف الاجنبي والتوجه إلى أوربا لمحاربة هتلر ، وقد اختار السجن بطبيعة الحال .

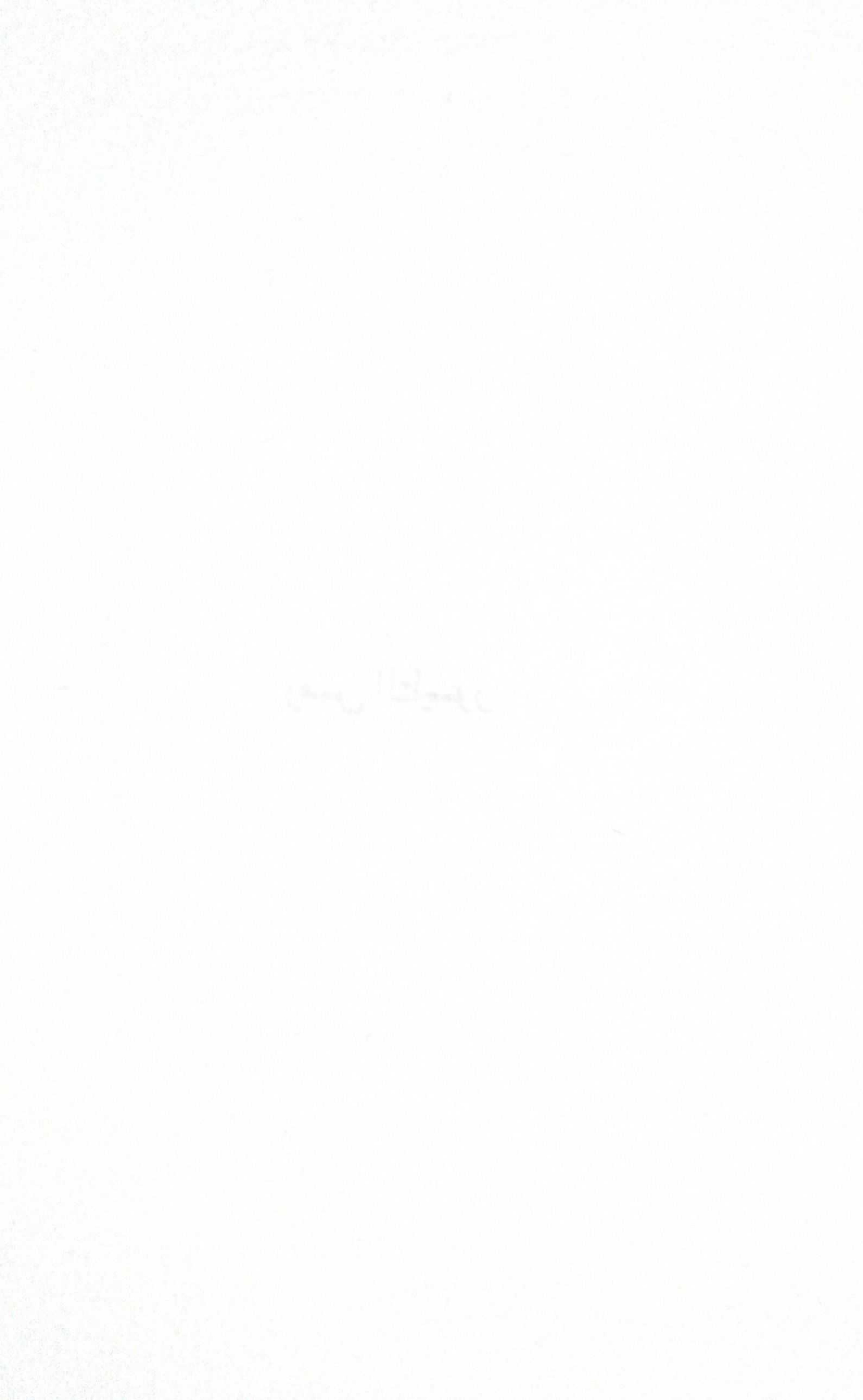
وكان سجن «لامبيز» قاسيا عليه ، فقد مات به من شدة الجوع ووطأة القمل . ومع موت سي عبد القادر سيطر الفقر على عائلته ولا يزال إلى يومنا هذا مع أنه كان من المنتظر أن تتحسن أحوال الناس بعد الحرب .

«لو نعيد همومي يصير البحر غلاب» (2)

---

(1) و (2) من أغنية للمطرب الحاج محمد العنقاء .

زمـن الطيـور



ـ 1

ـ أَتدْرِي ... !

وَزَمَّ شفتيه كأنه يريد أن يدلل على تعجبه ، وما لبث أن تراجع قليلا ، مضيقا ما بين حاجبيه وهو على وشك أن يستحضر المشهد الأول من الفيلم :

ـ جماعة من السجناء يطوفون بالباحة تحت أنظار الحراس . . . إنها الدورة اليومية حتى لا تتجمد الدماء في عروقهم ، وتنزل حبات دقيقة من المطر سرعان ما تصير غليظة ، ويبدو التذمر على وجوههم ، ثم تتسارع دفقات المطر ونراها وهي تقرع أرضية الباحة الإسمنتية ، وتنطلق صفارة حادة فيفهم السجناء أنه الأمر بالعودة إلى زنزاناتهم ، فينصاعون ويتدافعون أمام المدخل ذي القضبان الحديدية ..

يضرب يمناه بيسراه وهو في غمرة الإعجاب :

ـ فيلم رائع حقا ! يجب عليك أن تشاهده ، فأنت تحب الطيور ، ، تصور هذا المدخل الرائع !

ويزداد تراجعا ، وهو يعض جانبا من شفته السفلى ، ويغمض عينه اليسرى قليلا :

ـ المطر يندفع بقوة ، غير أن هناك سجينا لا يأبه بالسيول التي بدأت تغمر الباحة ، الصفارة الحادة لا تنفع ، والحاح الحراس يضيع في زحمة السجناء . يرفع السجين رأسه ويدور في الباحة باحثا عن شيء في السماء . حبات المطر تضرب عينيه غير أنه يفتحهما على سعتهما في عناء ، الحراس يتابعون حركاته . هناك طائر يهوم فوق الباحة ، كأنه يبحث عن مكان يختبيء فيه ، يبدو أن المطر فاجأه . إنه يضرب بِجَنَاحَيْه ، غير أن حباتِ المطر أسرع منه ، فكلما حاول الإرتفاع ازداد نزولا ، السجين يتبعه بعينيه الحادتين كأنه يتوقع سقوطه . يدور الطائر دورة سريعة في فضاء الباحة ، وينهار في بركة صغيرة وسرعان ما يبادر السجين إليه فيرفعه في رفق ، ويضمه إلى صدره . ويتبادل الحراس نظرات متسائلة عن أمر هذا السجين ، فلا يجدون من جواب شاف سوى أن يهزوا رؤوسهم . ويتجه السجين نحو المدخل في هدوء حانيا على طائره وتظل أنظاره مشدودة إلى الشيء الصغير المنكمش في صدره ...

* * *

ـ 2

كان المطر خفيف الوقع تلك العشية ، سارعت مع صاحبي إلى الإختباء تحت زيتونة عجوز ، وجعلنا نحدق في الأماكن التي نصبنا فيها الفخاخ . كانت ضيعة «المالطي» قبالتنا هامدة ، والغريب أن الكلاب توقفت عن النباح منذ وقت طويل . لعله أسكتها حين صرخ فينا بمغادرة أطراف الضيعة .

تحرك صاحباي نحو أماكن الفخاخ فلم أتبعهما ، بل ظللت أقلب قنينة «البريق» (1) الزجاجية وأتأمل تلك النمال المجنحة في

1) «البريق» : نوع من النمال يمكث زمنا طويلا في التراب وتنبت له أجنحة تساعده على الانتقال في البراري ، يستعمله الصبية كطعم في فخاخ الصيد .

الداخل وقد اختلطت عليها السبل. عشرات النمال تركب بعضها بعضا وتتطاير أجنحتها.

وفجأة، نبحت الكلاب في الضيعة، ورأيت صاحبي يندفعان وسط أشجار الزيتون التماسا للخروج، وسمعت طلقة بندقية صيد، وعزمت على الهروب، حقا! كان ذلك المالطي سيد الجبل. جيرانه الأقربون يقطنون على مبعدة نصف ساعة من ضيعته، أما بقية الأراضي فهي مخضرة مزهرة لكنها موحشة.

اندفعت مع صاحبي حتى بلغنا المرتفع المقابل للضيعة. أصوات المالطي كانت تأتينا في نوع من الحشرجة، كأنما شرب الكثير من الخمر، وكلابه تراجعت عندما بلغت حدود الضيعة. كنا إذن بمنجى عن أي خطر، عندها جعل صاحباي يزيحان الطين الذي التصق بسرواليهما، ووقع نظري على ذلك الطائر الصغير الذي كان في قبضة أحدهما. شعرت لتوي بضرورة امتلاكه. لم يكن في وسعنا أن نقتسمه بطبيعة الحال، ولم يكن لي حق أخذه، فأنا لم أكن أتوفر إلا على فخ واحد وعلى قنينة «البريق» بينما كانت لصاحبي فخاخ كثيرة.

أذكر أن جناحي الطائر كانا مشوبين بلون برتقالي، أما باقي أجزائه الاخرى فذات لون رمادي خفيف. عرفت حينها أنه طائر «الحميمة» (2) شده صاحبي من قائمتيه شدا محكما، ورفعه قليلا لإيهامِهِ بالطيران، غير أنه ما كان يقوى على ذلك، فقد كان الدم يلطخ قائمتيه، وجزءا من زغبه السفلي. لعل الفخ حينما أطبق عليه كسر بعض عظامه.

---

2) «الحميمة» طائر موسمي في افريقيا الشمالية.

لم أشفق على طائر «الحميمة» أنا أعترف بذلك ، وسرنا في درب ترابي وسط أشجار الكاليتوس دون أن أقول شيئا لصاحبي ، على أن أنظاري ما كانت لتحيد عن الطائر . ومررنا بجوار مقبرة للأوربيين . فأقترح أحدهما أن ننصب الفخاخ داخلها ، فهي لا تخلو من الطيوز الشتوية ، لكنني وجدت الإقتراح في غير محله ، ثم ان النهار كان على وشك الإنقضاء .

وواصلنا سيرنا فوق رأس الجبل ، ورغبتي في امتلاك الطائر تزداد شيئا فشيئا ، غير أن الكلمات تجمدت في حلقي ، ولم أقو على الإفضاء بما أريد .

* . *

3 ـ

ـ أتعلم ما الذي حدث بعد ذلك ؟

وضع كلتا يديه في جيبي سرواله ، وأرسل نظراته نحو أشجار الصنوبر التي تقابله ، وأضاف ممتعضا :

ـ وددت أن لو أحكي لك قصة الفيلم كلها ، ولكن من الصعب على الانسان أن يحتفظ في ذاكرته بالتفاصيل الهامة ، التفاصيل هي التي تصنع الفيلم الجيد ، ، ،

مضت عليه بضع ثوان دون أن يضيف شيئا كأنما قرر ألا يواصل سرد القصة ، ثم قفز فجأة وقد التمعت عيناه ببريق تشوبه بعض الغرابة :

ـ تصور أنه خلع طاقيته الصوفية وصنع منها ما يشبه العش ، العجيب في الأمر هو أن المطر الغزير الذي انهال عليه في الساحة لم يؤثر في صحته مطلقا .

وفرك يديه ، ورسم على وجهه علامات التقدير لموقف البطل :

ـ أما قمة الغرابة فهي أنه جعل يطارد حشرات زنزانته ليغذي ذلك الطائر المسكين ، وقد اضطر في البداية إلى سحقها وخلطها بالماء حتى يقوى الطائر على ابتلاعها . .

* * *

ـ 4

قمة الجبل مفلطحة ، تنبت عليها شجيرات شديدة الخضرة تنبعث منها رائحة غريبة ، أما التربة فهي ضاربة إلى الحمرة ، وهي في بعض الأماكن تميل إلى السواد . في جانب من القمة تبرز قبة بيضاء لأحد الأولياء وتنتشر بالقرب منها عدة قبور بدون شواهد . يقال إن ذلك الولي كان يمتلك الجبل كله ، بما في ذلك ضيعة المالطي قبل قرون عديدة ، وقد وهبه للأوقاف .

لو كنت أومن بخرافات العجائز في الحي لتضرعت إلى ذلك الولي لكي يعينني على امتلاك الطائر ، وفجأة ألحت علي الفكرة فأنكرت ذلك على نفسي ، ولو لا هبات الريح الصاعدة من الجهة البحرية لكنت حثثت الخطو الى قبة الولي . كانت ريحا ندية تجعلني أسعل ولا أتوقف عن السعال .

ظل صاحباي يسيران إلى جانبي صامتين كأنهما لم يقنعا بذلك الصيد . بدأت العمارات تظهر لاعيننا شيئا فشيئا بعد أن بلغنا أطراف القمة ، وسرعان ما أحسست بضيق الوقت. المنحدر أمامنا وأنا لم أقم بما يمكن أن يكشف عن رغبتي .

وقفت على حجر ضخم فتوقف صاحباي ، وشعرنا ثلاثتنا بأننا في منطقة خواء . الحركة البشرية تظهر لنا عن بعد في الجهة السفلية

المقابلة ، وفيما عدا ذلك ، لا شيء يشجع على المكوث فوق قمة الجبل طائر « الحميمة » أغمض عينيه من جراء الألم في قائمتيه . حدقت فيه وقلت :

ـ يجب أن يكون هذا الطائر من نصيبي . . .

صاحباي أقوى مني ، لذلك وقعت كلماتي وقعا غريبا عليهما .

ـ انني أريد الطائر . . .

كررت الكلمات ببعض الإصرار وتبادلنا النظرات فيما بيننا ، لم يكن لي أدنى حظ في الحصول على الطائر دون مقابل ، فهو قد وقع في فخ من فخاخ صاحبي ، أما الفخ الذي نصبته بنفسي تحت زيتونة ضخمة فقد بقي على حاله.مر بعض الوقت ونحن على وقفتنا تلك إلى أن قال أحدهما :

ـ سوف ينزل الليل بعد قليل .

ـ أريد الطائر ، ، ،

نظر أحدهما صوب الآخر ، وسرعان ما وقع الاتفاق بينهما.شيء لا أدريه ، وأدركت أنهما دبرا الأمر منذ أن صعدنا الجبل عند الزوال .

ـ تعطينا الفخ وتأخذ الطائر ...

ـ بل أعطيكما قنينة « البريق » .

ـ نريد الفخ . . .

ـ ليس لدي سواه . . .

ـ الأفضل إذن أن نكف عن الحديث ...

* * *

5 -

حاول ان يستعيد مقاطع من الموسيقى التصويرية ، وجعل يدندن في تعثر واضح ، ثم توقف بضع ثوان وقال :

ـ إنه فيلم رائع حقا ! حتى موسيقاه رائعة . . .

وعاد إلى الدندنة ، مطرقا برأسه . في إطراقته تلك شيء من الحرج :

ـ تصور ، لقد كبر ذلك العصفور ، وتعلم الطيران داخل الزنزانة ، إنها مفارقة عجيبة أن يتعلم الحرية وسط القيود . الحرية في واقع الأمر درس لا نتقنه الا وسط السلاسل ، وفي ظلمات السجن ! العجيب أن ذلك السجين جعل يلقن العصفور بعض الحركات البهلونية ، بل إن العصفور نزل عند رغبة منقذه ، وحينما عمد السجين إلى وضعه بين قضبان النافذة لكي يصرفه ويرد له حريته امتنع عن الطيران . . .

وضرب يمناه بيسراه متعجبا ، بل إنه فغر فاه وهو يستعيد ذلك المشهد المؤثر :

ـ سأوجز لك الحكاية ! بعد أشهر قليلة انشغل السجين بصنع الاقفاص لتربية الطيور . الحقيقة أن الحكم الذي صدر في حقه هو الذي جعله يهتم بكسر طوق العزلة ، تصور ! لم يكتفوا بعقوبة السجن المؤبد في حقه فأضافوا اليها فقرة عن ضرورة عزله عن باقي المساجين . إن الإنسان ليخرج مجنونا من عزلة مماثلة ولكن ذلك السجين انشغل بعصفوره ذاك ، بل عمد إلى تربية عصافير أخرى حتى إنه لم يبق مكان من زنزانته دون أن يكون فيه قفص .

خطا بضع خطوات ، ثم دار حول نفسه وابتسم :

ـ تمنيت أن لو كنت مكانه . . .

ثم أضاف مستدركا :

ـ ولكنني لست مجرما مثله . قد تدفعك الجريمة إلى الجنون وقد تجعل منك عبقريا ، ولكن مثل هذا المخرج نادر جدا . . .

وفرك يديه ، وقد أصر على أن ينتهي من سرد قصة الفيلم :

ـ المهم في الأمر هو أنه صار يربي الطيور ، ويدرس أمراضها ، بل انه عمد الى معالجة بعض أدوائها ، كل ذلك داخل زنزانة تعافها الكلاب ... وبدأت شهرته تتجاوز حدود السجن وجعل الناس يهتمون بأخباره ، بينما راح عشاق الطيور يأخذون بنصائحه التي ينشرها في عض المجلات العلمية . . .

* * *

6 ـ

ذلك الفتى الذي برز لنا بين الاعشاب على حين غرة جعلنا نخلد إلى الصمت . لم يكن أحد منا يتصور أن آدميين قد يعيشون بجوار قبة الولي . وقف قبالتنا يحدق فينا بعينيه الضيقتين وقد حدس أنه واجد حاجته . في وقفته بعض الغطرسة ، فقد باعد بين رجليه كأنه يريد أن يسد علينا المنافذ . لم يكن في استطاعتنا أن نتراجع إن بدر منه شيء يدفعنا إلى الريبة في أمره . ودون أية مقدمات طلب منا أن نعطيه بعض « البريق ». كان واثقا من الحصول على ما يريده ، وخفق قلبي خفقة قوية ، فقد خشيت أن يطلب منا طائر « الحميمة » جعلت أخرج « البريق » من الفنينة في حذر ، وراح هو يضعه في قبضته القوية كان فتى عملاقا . هواء الجبل زاد في قوته الجسدية ، ولكنني حين أمعنت التحديق في عينيه ، ظهر لي أنه غبي ، فكيف يعمد فتى مثله إلى نصب الفخاخ ؟ إنها حيل مقصورة على الأطفال . لم نتبادل كلمات كثيرة ، ورأيته يحدق في الفخاخ التي كانت مربوطة إلى خاصرتي

صاحبي . في عينيه الضيقتين نوع من الجشع ، إلا أننا فوجئنا به يقول لنا محذرا :

ـ الأفضل لكم أن تغادروا هذه القمة ، فالعساكر مروا بها الليلة الفارطة ، وقد يعودون هذا المساء لإجراء بعض التدريبات ...

كنا في سن لا تدعنا نحفل بالعساكر كثيرا . كل ما أردته في تلك اللحظات هو الحصول على طائر «الحميمة» . وكل ما أراده صاحباي هو الاستيلاء على الفخ الوحيد الذي أمتلكه . لم نكن قد انتهينا إلى أمر قاطع فيما بيننا ، وقلت في نفسي إنني لو أحسنت نصب ذلك الفخ لكنت أمسكت بطائر مماثل . على أن الرغبة في امتلاك الطائر ظلت تزداد جموحا في أعماقي ، ثم إنني انتبهت إلى أن ذلك الفتى لم يكتف «بالبريق» ، بل جعل يلف ويدور كأنه يريد أن يخطف منا فخاخنا .

* * *

ـ 7

ـ لعلك تعلم أن بعض الفتيان المغرورين يريدون دائما وأبدا أن يصيبوا بعض الشهرة عندما يحتكون برجال الفتوة ! . . .

حك مقدمة جبهته ، وأبدى امتعاضه بأن بصق على الأرض . إنه مأخوذ بقصة الفيلم ، وجلس على حجر جلسة حكيم يستخلص العبرة مما رآه ثم قال بصوت مكدود :

ـ المسكين ! لقد قام بعض الصبيان بتمرد داخل السجن ، فوجد نفسه مضطرا إلى تهدئتهم حتى لا تتشعب الأمور وتتخذ طريقا لا منفذ له . . ما أقسى الحياة على رجل مثله خبر تلك الصبيانيات !

وقام من مكانه على عجل كأنه يريد أن يقدم الحجج على ما أورده من أقوال :

ـ لقد ثبت في وجه الزوبعة ، ، أجل ، ، ،

* . *

ـ 8

وهل كنا نستطيع الوقوف في وجهه ؟ ما أظن ذلك، على أنني أبصرت بصاحبي يستعدان لإطلاق الريح لأرجلهما ، وأحسست ببعض المرارة تعتريني ، فقد كنت واقفا وجها لوجه مع ذلك الفتى ، ولعلني كنت أول فريسة يفكر في الإنقضاض عليها . قال لي بصوت أمر :

ـ هات الفخ . . .

كدت أرضخ للأمر لولا أن صاحبي كانا قد التقطا حجرين وصرخا فيـه :

ـ هيا ، أرفع يديك يا ابن الكلبة ! . . .

اضطربت أنفاسي بضع ثوان ، وأنا أستغرب تلك الحركة التي يأتيها صاحباي . أما الفتى فقد رفع يديه حقا ، وتأكدت حينها أنه غبي فعلا . ضربة واحدة منه تكفي للتطويح بنا جميعا . ورأيت « البريق » ينزلق من قبضته اليمنى ويطير متثاقلا فوق رأسه. طلبا منه أن يقف في مواجهة قبة الولي ويشهد على نفسه ألا يتعرض لنا بسوء ، ففعل ، ولكن بصوت مهموس ، وظل على وقفته تلك في حين انزلقنا دون أية حركة . وانسربنا في المنحدر الملتوي وسط شجيرات الزيتون والأحجار الغليظة .

واندفعنا جريا ، ونحن نضحك وإذا بالحجارة تتساقط في إثرنا . وأدركنا ثلاثتنا أن العودة إلى الصيد فوق رأس الجبل لم تعد

مأمونة العواقب . يا لذلك المسكين ! راحت الحجارة تتجاوزنا عندما غبنا عن أنظاره ، كان ذا قوة خارقة في التطويح !

عندما بلغنا آخر المنحدر وتهيأنا لعبور جسر نهري صغير عاودتني الرغبة في امتلاك الطائر . أوقفت صاحبي ، وفككت رباط الفخ المشدود إلى خاصرتي .

لم أكن في حاجة إلى مقدمات . أعطيت الفخ ، وتسلمت الطائر . غير أن إحساسا غريبا استبد بي في تلك اللحظات . شعرت بالحقد على طائر « الحميمة » حتى انني لم أقبضه من قائمتيه بل وضعته في يدي اليمنى وتركت رأسه يطل بين الإبهام والسبابة ، وجعلنا نتسلق الربوة التي يقبع فوقها حينا الهادىء .

* . *

9 ـ

ـ المسكين ! لقد قُضِيَ عليه بالشقاء الأبدي ...

عيناه تلتمعان ببريق عجيب . لعله بريق الدمع المتلالىء . لقد استولت قصة الفيلم على وجدانه :

ـ نعم ! لقد ثبت في وجه تلك العاصفة الهوجاء ، بل إنه استطاع أن يسيطر على الوضع كله . . .

لقد استبدت به الرغبة في البكاء :

ـ تصور يا أخي قساوة الأحكام في أمريكا ! إنها بلا رحمة ...

ثم مسح عينيه ، وابتسم ساخرا من نفسه ، وفرك جبهته :

ـ لقد شاهدت فيما مضى فيلما يروي حكاية ضابط أمريكي حكم عليه بقضاء حياته كلها على متن احدى السفائن . . .

وهز رأسه هزا خفيفا وأضاف :

ـ المهم في الأمر هو أن صاحبنا هذا صار أعلم علماء الطيور دون أن يغادر زنزانته .. ما أروع مشهد هؤلاء السجناء وهم يعودون إلى زنزاناتهم بعد تلك العاصفة !

* . *

10 ـ

عندما بلغنا قلب الحي ، نزل مطر خفيف ، فأسرع كل واحد منا إلى داره ، غير أنني فوجئت بجمع من الأطفال يتبعونني وهم يريدون التحديق في طائر « الحميمة » . حاولت أن أصرفهم ، لكنهم أصروا على السير في إثري . وحين فتحت باب الدار ، سمعت أهازيج نسوية فعلمت أن هناك عرسا يقام في الباحة . وأحسست بثقل الهزيمة في أعماقي ، فدخلت إحدى الغرف ، وتناولت مدية ضخمة ، ثم تسللت بين النسوة ، وانزلقت تحت شجرة تين ضخمة . لم أنتظر طويلا ، بل هويت على طائر « الحميمة » فقطعت رأسه ، ثم حدقت في الجبل المقابل وقد تسربل بالظلام .

* . *

11 ـ

يبدو أنه انتهى من سرد حكاية الفيلم ، لقد ركن إلى الصمت ، وأطرق برأسه يستذكر أشياء في ذهنه ولا يريد أن يفصح عنها ، وتناول قشة ، وجعل يخط على التراب خطوطا متشابكة لا معنى لها :

ـ قد تبدو لك نهاية الفيلم بشعة ، ولكنهم في الحقيقة نقلوه من ذلك السجن اللعين عندما بلغ السبعين من عمره .

نفس البريق ارتسم في عينيه مرة ثانية ، لا يبدو عليه أنه يوشك على إرسال الدموع هذه المرة .

عندما أخرجوه من تلك الجزيرة التي يقوم عليها السجن حدق بعينيه اللطيفتين في سماء الجزيرة فأبصر بأسراب من الطيور البحرية تتجه شرقا ، وابتسم .

* . *

12 ـ

أبصرت لحظتها طيورا عديدة تقطع سماء الجبل صوب الشرق ، كانت طيورا شتوية ، وتبعتها بأنظاري ، وخيل إلي أنني في حفل بهيج ، مع أنني لم أعر انتباها للأهازيج النسوية المتعالية في باحة الدار ، بل إنني لم أعرف شيئا عن صاحب العرس ، تناولت طائر «الحميمة» بيمناي ، ووضعت رأسه في يسراي ، وحدقت صوب الجبل المقابل فلم تقع عيناي على أسراب الطيور ، ثم رفعت الرأس المخضب بالدم قبالة عيني فاعترتني رعشة النّشوة ، وقررت لتوي أن أزيل الريش عنه وأشويه ، بل إنني أقسمت على قضم رأسه بمفردي لكي أصير صيادا مـاهـرا .

الفهـرس

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ــ 1984

السعر في الجزائر : 12,58 د.ج